عمّ نتحدث
حين نتحدث عن
الصداقة
بلال علاء

عمّ نتحدث
مين نتحدث
عن الصداقة

وزيز

مشروع نشر يمزج بين أساليب النشر المؤسسي
ومبادرات النشر التجريبي والفني

www.wazizbooks.com

wazizbooks

wazizbooks

waziz.books

للتواصل:

contact@wazizbooks.com

عمَّ نتحدث حين نتحدث عن الصداقة

تصميم الغلاف: محمد أنور

تدقيق لغوي: أحمد مدره

إخراج فني: حسن عصام

رقم الإيداع:٣١٠٢/٢٠٢٣

الترقيم الدولي:٩-٤٥٩٣-٩٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

طُبعت في مطبعة ماستر برنت بالقاهرة

قال لي ذات مرة: «تبدأ الحكايات بفقد، أو باحتفال، ولذلك تكون منقوصة، أو سكرانة».

الفصل الأول

«وَإِنِّي مَتَى أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ
وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا»

١

أقود السيارة في دوائر واسعة كفايةً لتكون ملاحظتها من قِبل شخص آخر مستحيلة تمامًا. أشعر أنني على وشك التفتُّت، لكن لا أتفتت، أحتفظ بهدوء ظاهري ورصانة مفتعلة تجعلانني ملجأ لمن يظنون أنهم على وشك التفتُّت بدورهم، لكن إلى من ألجأ أنا؟

لديَّ خمسة بيوت يمكنني دخولها في أي وقت، سبعة أشخاص سيتركون ما يفعلون حين أحدثهم أنني بحاجة إلى المساعدة. تبقى هذه نظرية؛ لأنني لم أفعل ذلك.

الذي قال إن صداقة الذات هي أم الصداقات لم يعرف شيئًا عن الذات، ولا الصداقة، فقط أخذ فكرة سطحية عن الوعي بالذات، وأدخل فيها مجاز الصداقة؛ ليبدو الرأي حكيمًا كفايةً، حتى وإن كان بلا معنى تمامًا. أعرف هذا لأنني أفعل هذا على الدوام. لكن هل يمكن مصادقة الذات فعلًا؟ جانب من الصداقة -في ما أظن- هو الغرابة والغموض، والمعلومات الناقصة التي تترك للآخر مجالًا للاقتراحات الجديدة، مجالًا ليكون في المحادثة صوتان. نحن كشَّافو الطريق بعضنا لبعض، تنعقد صداقتنا كاجتماع واسع، كل أفراده بعيدون بعضهم عن بعض كفايةً ليروا طرقًا مختلفة، وقريبون كفايةً ليسمع بعضهم نداءات بعض.

لكن من قال إن صداقة الذات أمُّ الصداقات قصد أيضًا أن من تمكَّن من إجراء حوار مع الشخصيات المتعددة لذاته سيتمكن من إجراء حوار مع آخرين، والحوار هو بداية الصداقة. لكن الاختلاف، الذي تتحقق به الصداقة، هو «آخرية» الآخر فعلًا، لا مجازًا. الصداقة هي التوق إلى الخروج من الذات، التوق دون ضرورة تحققه، نتآنس بنداءات بعضنا لبعض، حتى لو لم نفهمها تمامًا.

٢

قبل ساعة، كنت على مكتبي، أمامي سيارة زرقاء صغيرة، أحركها بين الكتب واللابتوب، أتخيل أنني أركبها. عالم صغير رائع لا يهدده إلا صوت الكاتل. جنديان صغيران يقف كلٌّ منهما وراء كتاب ما؛ الأول، يمين المكتب، يعطي ظهره لظهر الأعمال الكاملة لبورخيس، وجزء صغير من جسده خارج الكتاب ليعرف ماذا يحدث في العالم؛ الثاني، يسار المكتب، يجلس على ركبتيه فوق الأعمال الشعرية لكفافيس، مواجهًا العالم دون اختباء، وبينهما حديقة حيوان كاملة يلعب أفرادها بين الكتب والشاي وزجاجة العطر، وبعض النقود المعدنية.

أفتح صفحة بيضاء في اللابتوب، أكتب جملًا عشوائية بحثًا عن ثغرة دلالية ينفذ منها معنى لا أعرفه بعد. بعد وقت قليل أدرك: الكتابة لن تنقذني هذه المرة.

أشعر بالألم في صدري وقدميَّ ويديَّ. الساعة الحادية عشرة وثلاثة وأربعون دقيقة، تفصلني ثلاثة أرباع ساعة ودقيقتان عن موعد مثبت المزاج الأحمق.

أقوم من مقعدي، أتمشى جيئة وذهابًا في الغرفة، أشعر بالاختناق، أتمشى في ممر الشقة، أتمشى في الصالة مستثارًا وقلِقًا، أفكر في أن أجرح معصمي؛ لأجعل الألم المادي يطغى على الألم النفسي. أذهب إلى الحمام، آخذ ماكينة الحلاقة، أنزع غلافها، أمررها على يدي، الممتلئة بآثار الجروح السابقة، أرميها بأقصى قوتي على الحائط، آخذ مفتاح سيارتي من خلف الباب، محفظتي من درج المكتب، أتأكد من وجود رخصتي القيادة والسيارة، أرسل إلى محمد وهبة أنني في الطريق إليهما، أضع دوائي في جيبي، أتأكد أن مفاتيح البوتاجاز كلها مُغلَقة، أفصل الكهرباء عن الكاتل والسخان، أضع طعامًا يكفي ثلاثة أيام للقط، أملأ طبق مياهه، أتأكد مرة ثانية من البوتاجاز، من وجود رخصتي

السيارة والقيادة، أتأكد أني أطفأت آخر سيجارة جيدًا، لا أستطيع التأكد تمامًا فأكب على المطفأة كوبًا كاملًا من المياه، أتأكد من البوتاجاز مرة ثالثة، أتأكد من إطفاء السيجارة، آخذ المطفأة بكاملها وأغرقها في مياه الحوض، أتأكد من أني أغلقت المياه، مرة واثنتين وثلاثًا، أغلق محبس المياه، أتأكد أني أغلقته، أغلق الباب، أتأكد أني أغلقته، أطلب المصعد، ثم أهبط السلالم دون أن أنتظره. أشك أنني أغلقت الباب، لكن طاقتي تقل بسرعة. أصطدم بالسيارة التي أمامي وأنا أخرج بسيارتي، يعلو صوت إنذارها، أكمل طريقي. سبع عشرة دقيقة حسب ما يقترح الذكاء الاصطناعي، لا أظن أنني قد أحتمل هذه المسافة كلها.

٣

- مالك يابني؟
- كويس، قلت بس آجي أقعد معاكم شوية. كنتوا بتعملوا حاجة ولا إيه؟

تقف هبة مائلة مستندة بيد واحدة إلى المقعد الذي يجلس عليه محمد مجدي في ثوب بيتي وبشعر مُهرجَل. تبدو نشيطة أكثر مما يوحي به هذا الوقت المتأخر، بينما محمد يكتب شيئًا ما على اللابتوب.

- غيَّرتي الشيفت بتاع شغلك ولا إيه؟
- آه، بقيت بخلَّص على خمسة كدا، وبرجع أنام ساعتين، بعدين أفضل سهرانة زي الحمارة وأروح الشغل نعسانة، وبعدين أرجع تعبانة، فأنام، وأفضل سهرانة.

ترسم بسبابتها دوائر وهمية وهي تحكي. تميل على الكرسي، بزاوية ميل محمد به نفسها، كلاهما يميل في الاتجاه نفسه، بعيدين بعضهما عن بعض، اللابتوب وحده هو المحتفظ برصانة جلسته.

أشعر بألم في يدي، قدمي اليسري تهتز بسرعة ثمان مرات في الثانية، أتأكد أن كُمَّي قميصي يغطيان آثار الجروح في ذراعي تمامًا، أمسك طرفيهما بأصابعي. أفكر الآن أن سعيد كان دائمًا ما يفعل هذا بالضبط، وكنت أتخيل دومًا أنه يمسك كُمَّي قميصه كأثر لعادة طفولية قديمة؛ إذ اعتاد أن تكون قمصانه وتيشرتاته طويلة بالنسبة إليه لأنها كانت دائمًا تخص ساهر؛ أخاه الأكبر.

يقوم محمد منتفضًا من جلسته كأنه تذكر شيئًا هامًّا.

= حد عاوز يشرب شاي؟

يضحك كمن يهش فكرة عن خياله. تحكي لي هبة -بينما هو في المطبخ- أنها غير قادرة على مسامحته أبدًا، وأنها تفكر في الانفصال. يضحك ثانيةً وهو يحمل الشاي إلينا، يعطيني كوبي في البداية، ويأخذ كوبه، ويترك لها كوبها. ماذا أفعل هنا بالضبط؟ من بين المجموعة التي تضمنا معًا ليسا الشخصين المفضلين لي، وهذه المجموعة نفسها ليست مجموعتي المفضلة، لكنها من تبقت، والمُحاصَر يكفيه منفذ واحد ولا تشغله كثرة الخيارات.

نشعل سجائرنا في الوقت نفسه، نتحدث عن العمل، الكتب، المسلسلات، الأفلام، عن أخبار بقية الأصدقاء.

إن لم آخذ دوائي الآن فلن آخذه هذا اليوم، ولن أستطيع النوم إذن، وإذا أخذته سأفقد طاقتي اللازمة للاستمرار في الحديث. القرارات الخاطئة خاطئة فقط حين تكون هناك خيارات أخرى.

في الثانية بالضبط، آخذ دوائي، في الثانية والنصف، نكون ثلاثتنا على الكنبة، نشاهد مسلسلًا عشوائيًّا، صامتين، أرجلنا مُمدَّدة على الطاولة، رأس محمد على كتفها، ورأسها مائل إلى الناحية الأخرى، حيث كتفي، بينما رأسي يميل إلى الفراغ. أفكر أن رأسي يجب أن يستند إلى شيء ما، وإلا سنقع جميعًا.

على الشاشة، تجلس فتاة على حافة سريرها، رأسها إلى أسفل، يداها متشابكتان، ترفع رأسها إلى الكاميرا، ثم تقول: «I am coming for you».

أستيقظ في الخامسة وإحدى عشرة دقيقة، وحدي على الكنبة، الأنوار مُغلَقة، مُغطًّى ببطانية، أذهب لعمل شاي، أفتح الثلاجة فضولًا، أفتح الأدراج في المطبخ، أفكر أن الطعام هنا سيكفي ثلاثتنا خمسة أسابيع إذا اقتصرنا على الوجبات الثلاث الأساسية، أربعة دجاجات كاملة، والفول والجبن والبيض كوجبات عشاء.

آخذ أضخم سكين وأقذفه في الهواء، ألتقطه من مقبضه، ثم أقذفه أعلى، ثم أعلى، آخذ سكينًا آخر، أقذفهما وألتقطهما بالتبادل، أتناول سكينا ثالثًا، أفشل من أول محاولة في التوفيق بينها، أجلس على الكنبة، أنظر إلى صور لمياء، أفتح رسالتها التي تخبرني فيها أنها «مشغولة بس» هذه الأيام، أرد عليها:

«It is ok. I think I should make peace with the fact that we are out of each other's lives for good, 'for better, for worse, in health and sickness'» .

أشرب شايًا في البلكونة. لن أنام مرة أخرى، وليس معي اللابتوب، ولا أستطيع النزول قبل أن يستيقظ أحد آخر. أقرأ عناوين الكتب في مكتبتهما، أسحب كتابًا بعنوان «عم نتحدث بالضبط حين نتحدث عن الصداقة؟»

قرأت المجموعة القصصية لريموند كارفر التي جعلت هذه الصيغة شعبية «what we talk about when we talk about love». أتذكر كتابًا قرأته قديمًا لأورليكا ماينهوف ولطالما أعجبني عنوانه: «Everybody Talks about the Weather... We Don't». أفكر في فادي، ثم في لمياء، أتصفح رسالتي إليها مرة أخرى. هل هي قاسية أم مستسلمة؟ ساخرة أم جدية أزيد من اللازم؟ ولماذا كتبتها بالانجليزية أصلًا؟ هل فقط لأن الجملة الأخيرة هي ما أتت إلى بالي فور قراءتي رسالتها، أم لأني أحب أن أجعلها غريبة من الآن وصاعدًا؛ نتواصل بلغة غير أصلية عن علاقة غير أصلية هي الأخرى؟ آخذ مفاتيحي والكتاب، وأنزل من بيتهما، وأقود سيارتي إلى بيت فادي.

٤

الصداقات كالبيوت، لها مداخلها ونوافذها وشرفها، وبامتداد المجاز؛ لها حوائطها. إن قلت إنكِ تبني صداقة فأنت تعلم أنك بالضبط تحدها. ولها أيضًا أسسها، ومعمارها الخاص، وتكاد تكون فنًّا، يختلف إتقانه من واحد إلى آخر.

كيف -أصلًا- يحدث أن تكون لنا صداقات؟ كيف يظهر هذا الشيء الذي من أجله نتجشم عناء البناء؟ من اشتراك الاهتمامات؟ من رفقة المواقف الكبرى في الحياة؟ من الانبهار الأوَّلي بقدرتنا المشتركة على التدفق مع آخر؟ من الإحساس بالأمان والعزوة؟ عن ماذا نتحدث بالضبط حين نتحدث عن الصداقة: الحد الكافي من المعرفة لتجاوز الموضوعات المبتذلة؟ قدر معين من الحنان لاحتمال ما لا يمكن احتماله؟ ارتياح كافٍ للجلوس في صمت أو للحديث إلى الأبد؟ هل نتحدث عن الوفاء؟ العِشرة؟ الود؟ لماذا كان سعيد يمسك كُمَّي قميصه إن كنا أصدقاء؟ ولماذا أمسك كُمَّي قميصي إن كانوا أصدقائي؟

حين يقول فتى لفتاة: «إذن.. دعينا نصبح أصدقاء»، فماذا يقصد بالضبط؟ هل بإمكان أي أحد أن ينشئ صداقة متعمدًا؟ هل يمكن بسهولة تحويل مبنى مُصمَّم لغرض إلى غرض آخر، أم أن الحب والصداقة كليهما فرع من السكينة؛ فإذا تحققت أصبحا ممكنين معًا، أو على حدة، وإذا تهدمت انهارت إمكانية الاثنين معًا؟ لكن ماذا يحدث حين تنهار؟ وما مضاد الصداقة؟ الود المشاعي المُسطَّح أم العداوة العميقة؟ ومتى بالضبط يمكن الحكم على الصداقة بالانتهاء؟ في لحظة الشعور بضيق المبنى على ما نتمناه، أم بالتنبُّه فجأة بنسيان طريق المبنى من الأصل؟ بماذا نعد حين نعد بالصداقة؟

٥

ألعب بالحصان الجرانيتي على طاولة فادي. فتح الباب وقال إنه يحتاج إلى ساعة نوم إضافية، ثم سيأتي لنتحدث.

لبيته الترتيب نفسه تقريبًا لخمسة بيوت أعرفها؛ طاولة خشبية صغيرة سوداء، خلفها كنبة زرقاء وأمامها تليفزيون عملاق مُحاصَر في مكتبة خشبية، وداخل الشاشة كاوبوي يجلس في بار، ويمكنك ببساطة من مشهده فقط أن تتوقع أن هذه هي اللحظة التي تسبق معركة كبرى. هو ليس حقيقيًّا ويعلم ذلك، تكوينه الجسدي الممشوق أهَّله لهذا الدور، وكل من بجواره يؤدون أعمالًا ثم يعودون إلى بيوتهم. كل الناس ضجِرة إذا أمعنت النظر كفايةً كما يقول بورتيخوس في روايته «الرجل في الشارع»، فقط رجل يمشي ويتحدث عن الضجر. رشحتها لي منة وهي تقول إنني بالضبط هذا الرجل في الشارع. لكني لست ضجِرًا، أنا غاضب، رنة صوتي الهادئة هي فقط ما يجعل غضبي يبدو كضجر، لكني غاضب كمراهق غبي أخبره والده حالًا أنه يجب أن يأتي إلى المنزل في حدود العاشرة مساءً وإلا فليبحث لنفسه عن مسكن آخر.

يضع قهوته أمامه، ويجلس بجواري، يُميل نفسه ناحيتي:

– ها، مصحيني بدري كدا ليه بقى يا سيادة الباشا؟

في الجامعة كان يشتهر بالديك؛ بسبب طريقة تصفيفه لشعره، والآن أشعر أنه يشبه الديك فعلًا. ديك لطيف مبتسم، لكنه لا يتوقف عن النقر في وجهك.

– إنت عارف إنك شبه الديك فعلًا؟

– يابني بقى!

– بتكلم جد والله، متهيَّألي ممكن بالوقت الأسامي بتنطبع علينا. مش الناس بيقولوا إن المتجوزين بيكونوا شبه بعض بالوقت؟ جايز

بنكون إحنا كدا كمان مع أسامينا.

– يابني أنا لسه صاحي، أرجوك بلاش فلسفة.

– دي مش فلسفة، لو حابب تصنفها يعني ممكن تكون أنثروبولوجيا أعتقد.

– عامل إيه طيب؟

– والله تمام. جاي لك من عند مجدي، كنت بايت هناك.

– آه، عيل واطي.

– مش هو السبب.

– أمي طبعًا.

– مش هو السبب.

– آه ما أنا بقول لك أمي أهو.

– أنا مش فاهم إنت بتتعصب عليا أنا ليه!

– ياخي بلا قرف بقى، ملعون أبوك إنت كمان.

– تصدق إنك عيل ابن كلب فعلًا.

أقول وأنا أقف، وأنتبه أن قبضتيَّ مضمومتان. أفكر أني قوي كفايةً لتطليع ميتينه إذا ما تحمس زيادة. فرق الطول لصالحي، وخبرتي القديمة كملاكم سأستعملها أخيرًا. يقف ويقذف بفنجان القهوة في التليفزيون، الذي -لخطأ درامي ما- لا ينكسر ولا ينخدش حتى. يمسك بالحصان الجرانيتي، وبكل ما فيه من عزيمة يقذفه، يتحطم التليفزيون بالفعل. أضحك، يضحك، يبكي، ويجلس ثانيةً، يخبئ وجهه بين يديه. عيناي جافتان تمامًا. كيف يمتلك الناس هذه القدرة الجميلة على البكاء علانيةً وفي التوقيت المثالي؟ ينهنه، وأفكر أنه من أولئك الناس الذين لا يحتاجون إلى وقت طويل للانتقال من النوم إلى اليقظة التامة، وأنا غاضب، غاضب كمن اكتشف حالًا خيانة شريكته، وبكل عزمي، أمسك فيلًا جرانيتيًا وأقذفه إلى الحائط، ينكسر، ولا يذهب الغضب. ينير الهاتف: «You will be just fine».

ينضم هاتفي إلى الأشياء على الأرض بعد قذفي إياه، دون أن ينكسر. أضحك على النكتة التي يخبرنا إياها العالم. أضع هاتفي في جيبي، المفاتيح، الرخَص، أفصل كهرباء التليفزيون، هو كفَّ عن النهنهة، ونزل من فوق الكنبة، ويجلس على الأرض ضامًّا ساقيه إلى صدره، دمعة تنساب هادئة على وجهه. أجلس، منتظرًا اللحظة المناسبة للنزول من المنزل. أنا بصعوبة أبقي أجزائي متماسكة ولن أنجو من أي انفجارات للمشاعر.

يرن الجرس، بسنت، أفتح لها، تبصر ما حدث، ولا تعلق، تذهب لعمل قهوة، وتأتي بها، ولا تتحدث، تجلس على بعد مترين على الأرض، ضامَّة ساقيها إلى صدرها مثله، تلعب بتعبيرات وجهها مثل الأطفال، تُخرج لسانها، يبتسم ابتسامة بين الاستسلام والألم، يحرك رأسه أن لا، لكنها تستمر. أمدد ساقيَّ على الكنبة، أضع هاتفي ومفاتيحي على الطاولة، رأسي عند رأس بسنت، قدماي قريبتان من رأس فادي، وأنام.

٦

أحلم أنني بجوار فادي وباسم ومريم وغادة وسعيد وغانم والتربو وشاكوش ومسمار، في محاضرة تلقيها لمياء. يد فادي فوق كتفي، وجسده مائل عليَّ، وجسد مريم مائل عليه، وسعيد مائل إليها، والتربو وشاكوش ومسمار، كل منهم مائل إلى الآخر. أنا في آخر التختة، أكاد أقع. تمد لمياء من بعيد يدها غصن شجرة رفيعًا وخاليًا من الثمار، أظن أنها تنقذني، فأمسك بالغصن، ينكسر، أسقط على الأرض. تنظر إليَّ لمياء معاتبة، أتجاهلها. أجد نهى جالسة على الأرض، تمد يدها غصنًا مليئًا بالثمار، يقفز سعيد من فوقي، يلتهم كل شيء، وينظر إليَّ معاتبًا أنني لم أدعُه إلى المأدبة، أعرف أنني أحلم، لكني أقول له: «إنت السبب».

يقف، يعطيني جانب جسده، ويقفز خفيفًا في مكانه كملاكم على وشك ابتداء المباراة، ويشير إليَّ بالاقتراب والتعارك، أقبل الدعوة، ألكمه في وجهه،

يتراجع خطوتين، ثم يشير إليّ بالاقتراب مجددًا، ألكمه، يتراجع، مجددًا، يتراجع. رأسه أحمر دامٍ، بالضبط كما رأيته آخر مرة، يبتسم، ويشير إليّ بالاقتراب.

أصحو، بسنت في الشرفة، فادي يكتب شيئًا ما على اللابتوب، أدندن «وَأَنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ .. وَكُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وتَسْمَعَا»، ولا أعرف إن كنت أناجي سعيد أم لمياء أم نهى. ينقبض صدري.

– كُنْتَ.

يقول فادي دون أن ينظر.

– عارف.

– وتُسْمِعَا.

– عارف.

ينظر إليّ، يضم شفته السفلى تحت العليا، يُضيِّق عينيه، ثم ينظر إلى اللابتوب مرة أخرى.

– «وَكَانَ جَنَاحِي إِنْ نَهَضْتُ أَقَلَّنِي، وَيَحْوِي الْجَنَاحُ الرِّيشَ أَنْ يَتَنَزَّعَا».

يغلق فادي اللابتوب بعنف، ينظر إليّ غاضبًا، يخرج إلى الشرفة، أخرج معهما. من هذه الشرفة، يمكنك أن ترى رجلًا أربعينيًّا يشاهد التليفزيون في صالة تكاد تطابق صالة فادي؛ ويعلوه بدور واحد رجل ستيني وزوجته، يجلسان كلٌّ في جانب من الشرفة وينظران إلى الفراغ أحدهما عكس اتجاه الآخر؛ وفوقهما في العمارة المجاورة فتاة عشرينية أو ثلاثينية، تلعب اليوجا أو شيئًا شبيهًا بذلك؛ في الأسفل تمامًا معركة غير جدية بين سائقين؛ وفي الشارع، الذي يفصل بين عمارة فتاة اليوجا والزوجين الستينيين، شخصان يسير أحدهما بجوار الآخر مسرعين، وشاب يستند إلى شجرة بقدم واحدة، وصاحب بقالة يرش المياه أمام المحل، بالضبط، على بعد خمسمئة واثنتين وثمانين خطوة متوسطة الطول من حيث التقيت سعيد آخر مرة.

بسنت بيني وبين فادي تستند بيمناها بميل قليل إليه، يسند وجهه على كلتا يديه معطيًا مؤخرته إلى داخل المنزل. عمل ثلاثتنا معًا في الشركة نفسها لستة أشهر، قبل أن تغادر بسنت، ثم أنا، ثم فادي، تاركين سعيد ومها.

حتى لا تختلط عليك الأمور (وهي ستختلط عليك؛ لذا إن كنت تتمتع بالرشاقة الكافية فيمكنك القفز فوق هذه الفقرة) نحن مجموعتان من الأصدقاء، ولسنا مجموعة واحدة؛ مجموعة أولى تضم مها وأنا ومجدي وهبة ومروة، ومجموعة ثانية تضم فادي وبسنت ويسرا وأحمد وسعيد، وأنا الرابط الذي يجعل المجموعتين تبدوان كمجموعة واحدة، وأحيانًا تتفاعلان كمجموعة واحدة.

الحجر الأساس للمجموعة الأولى هو هبة، التي جعلت مجدي يتخلى عن أصدقاء الجامعة ليندمج في مجموعتها المُشكَّلة من أصدقاء العمل والمقهى، والمجموعة الثانية مُؤسَّسة حول سعيد، الذي تمكَّن من جمع مجموعتين من الأصدقاء في مجموعة واحدة، بعلاقته المتساوية بكلٍّ من فادي وبسنت اللذين كان كل منهما يدير مجموعة تكاد تندثر مع الزمن.

تبدو مجموعات الأصدقاء أحيانًا أشبه بالبورصة؛ تشتري أسهمًا معينة بالقدر الكافي لتنضم إليها، وأحيانًا تشتري كمية كافية لتكون في مجلس الإدارة، وقد تستثمر كل ما عندك لتكون صاحب القول في حسم الصفقات والاستحواذات المتتالية، وفي موعد ما قد يُنقلَب عليك من قِبل حاملي الأسهم، ويُعيَّن رئيس مجلس إدارة آخر. يجري هذا كله في صمت ودون أي مؤامرات، وفي أغلب الأحيان دون أن ينتبه أي أحد. لطالما كان سعيد مغرمًا بتحليل ديناميكيات صعود إمبراطوريات الصداقة وهبوطها؛ من حماستها الأولى، ورغبتها في ضم العالم كله إلى مملكتها، وحتى انكفائها في حروب داخلية، منذرةً بصعود إمبراطورية جديدة.

٧

- عارف إيه أكتر حاجة رخمة في العلاقات الإنسانية بكل تعقيداتها؟
- كل تعقيداتها؟
- العكس، بتبان مُعقَّدة، رغم إنها نمطية ومبتذلة وقابلة للتوقع.
- مش دا المفروض يبقى شيء مطمئن؟
- هو مطمئن لو إنت غير واعي بيه، أو مش جزء منه، رخم لما تكون عارف إنك نفسك جزء من النمط دا.
- دا ممكن بسهولة نسميه الوعي بالذات.
- ممكن نسميه أي حاجة، لكنه هيفضل محض نمط.
- مفيش حاجة اسمها محض نمط.
- فيه حاجة اسمها محض نمط، لما تكون واعي بحاجة إنت مش عايزها، وفي نفس الوقت مش قادر تراوغها. بسمة كانت شايفة إن الطريقة الوحيدة لمحاربة النمط مش مراوغته، لكن إنك تخش فيه للآخر.
- إنت كنت بتحب بسمة في الكلية، مش كدا؟
- فاكر الرواية بتاعت ماردلين اللي البطل بيقول فيها «وكساحرة فاشلة، كانت كلما لمست حجرًا استحال ذهبًا، لوهلة صغيرة، قبل أن تراه خراء حمار في ظهيرة شمس غاضبة»؟
- آه طبعًا، بس إنت كنت بتحبها في الكلية برضو.
- بحب محطمات العوالم دايمًا.

يضحك ربع ضحكة.

- «بسمة دي هي الزيف نفسه، أحب مين بس؟» دا كان كلامك وقتها بالظبط.
- آه، ما هو أنا بقول أهو إن الأنماط أكثر تحكمًا فينا من وعينا بيها،

ووعي بيها نفسه هو جزء من نمطي الخاص.

- بس الأنماط، عشان تبقى مؤكدة، بتحتاج إنك تعرف مآلات الحكاية، ودي حاجة مستحيل تعرفها وإنت لسه فيها.

- ما دا رأي بسمة، وعشان كدا كانت شايفة إن الطريقة الوحيدة لمراوغة أي نمط هي محاولة تحقيقه. بالحق، حكيت لك عن اليوم اللي بسمة كانت هتقتلني فيه؟

- نعم؟!

- طب اسمع.

٨

الصداقة كالحب، تحدث أو لا تحدث. أقصى ما يمكن الوصول إليه بالعزيمة هو الرفقة الآمنة. تحيط نفسك بمجموعات تقدر على الحديث معها في أمور كثيرة، يصفيها مرور الزمن، لكنك تدرك أن تلك المعرفة الوثيقة والغرق في تفاصيل يومياتكم والمساندة الصادقة هي شيء آخر غير الصداقة، تعرف ذلك لأنك تتذكر أنه في يوم ما، بمصادفة ما، عثرت على صديقك، على صديقتك، هكذا دون تخطيط. هناك شيء قاسٍ، وربما مثير للغضب، في الرؤية الرومانسية للعالم، حيث أشخاص مُحدَّدون «مُقدَّرون» بعضهم لبعض، هؤلاء الأشخاص المُقدَّرون هم وحدهم من ستشعر معهم بالاكتمال، قاسٍ لأن قانون الاحتمالات ينتصر لعدم الوصول إليهم (إذا كان لكل فرد شريك واحد أصلي، ففي مليارات العالم، الاحتمال الأكبر ألا يعثر أحدهما على الآخر)، ومثير للغضب لأنه ينزع من الإنسان معنى إرادته. في التصور الرومانسي للعالم، نحن حيوانات غرائزية، نفعل المُتوقَّع منا.

الصداقات كالحب، تحدث أو لا تحدث، لكنها تحدث أو لا تحدث بحسب تصوُّرنا لموقعنا في العالم، شعورنا بالحضور في المكان السليم، أو

إحساسنا بالغرابة، بحسب استعدادنا الأوّلي للانكشاف.

إن كانت الصداقة كالحب؛ سهمًا مقذوفًا تجاهك، فهو لن يصيبك أبدًا، ما دمت متمسكًا بدرعك. الدرع تحميك من الانجراح دون داعٍ، لكنها تخنقك، وتمنعك من التنفس، وتبطئ حركتك. لا معنى للصداقة إن لم تكُن مستعدًّا وقويًّا كفايةً لمعرفة أنك ستنجرح، جرحًا لن تُشفى منه أبدًا.

٩

أجلس في سينما فارغة، في الثانية عشرة ظهرًا، أمامي ساعة ليبدأ عرض الفيلم الذي لم أسمع به من قبل، بجواري يجلس فتى وفتاة في منتصف العشرينيات، يُقرِّب كرسيه منها، يستند بيده إلى كرسيها، وتميل بكل جسدها في الاتجاه الآخر. تناديه «محمد» مباشرةً. مضت على علاقتهما فترة كافية ليظن أنها هي، وفترة كافية ليغرها إحساس لا واعٍ أنها يجب أن تجري بكل عزمها من المأزق الذي وضعت فيه نفسها، لكنها على بعد أيام قليلة قبل أن يخرج هذا الشعور إلى الوعي. من حين إلى آخر يحاول أن يعبث بشعرها، الظاهر حتى منتصف الحجاب المعقود بخفة ولا مبالاة مقصودة. تعود بجسدها كاملًا إلى الوراء، بجسدها كاملًا. كيف تُفوِّت هذه الإشارة الزاعقة أيها الأبله؟ تضحك بعصبية على نكاته. الأيام القليلة تقصر مع كل خطوة عمياء من فرط الأمان المزيف. إن لم يقُل مخادعًا نفسه الآن إنها في مزاج سيئ اليوم، فستقطع علاقتها به بعد ساعات قليلة. يلعب في هاتفه، تلعب في هاتفها، ينتهي شحن هاتفي، يطمئنني ذلك، أنا الآن، بشكل ما، شبه ميت.

أخرج من الفيلم، تمسك حقيبتها في اليد التي تجاوره، أفكر لوهلة أن أخبره «يا عم، ما تبص يا عم»، لكنه ينتقل بلا وعي إلى الجهة الأخرى ليمسك يدها، فتُخرج هاتفها وتفتح شيئًا ما تريه إياه، وتضحك، وأضحك.

١٠

أخرج من السينما، أتمشى في الشوارع، أترك السيارة مكانها، وأفكر أنني أحب أن أتوه، كأن هذا هو التحقق لحلمي الآني بالاختفاء، لكن كيف يكون التيه ممكنًا في مدينة أدرك جيدًا جغرافيتها؟ كل تيه هنا تيه مؤقت، وأعرف كيف يمكنني أن أخرج منه بسرعة. لا يمكن بذاكرتي هذه أن أتوه، لكن حتى ولو كنت في مدينة بعيدة أجهل خريطتها تمامًا، ودون أي أدوات اتصال، ويتكلم أهلها لغة أخرى لا أفهمها، سأكون لا أزال أعرف من أنا، كيف جئت إلى هنا، وما غرضي من الخروج من التيه، هناك وجهة ما أعرف أنني حين أصل إليها أكون قد أنهيت توهاني. هل التيه مناقض الذاكرة والغاية معًا؟ ولا يمكنني أن أتوه أبدًا، فلماذا أحب الآن أن أتوه؟!

هل التيه المادي سيشتتني عن التيه النفسي الذي أجد نفسي فيه؟ لو كان التيه هو العجز عن الإمساك بجغرافية المكان، ما يجعل الوصول إلى مكان مُحدَّد مستحيلًا، فأنا في الوضع المناقض، ممسك بجغرافية المكان، لكني لا أحب أن أصل إلى مكان مُحدَّد، هذا المكان هو البيت، حيث لا مفر من ذاتي، لكني أستمر في المشي، وتفلت من يد ذاكرتي جغرافية المكان .

١١

في كل أنواع التيه، تبقى النصائح واحدة، حاول ألا تصاب بالذعر، تعرف على المكان حولك جيدًا، لا تهدر طاقتك، أو تسرف في استهلاك ما معك من عتاد، والأهم اترك دائمًا علامات خلفك، لتستطيع العودة إلى المكان الذي ابتدأت منه، ولتدرك إن كنت تدور في دوائر. لوهلة حين أنتبه أنني تهت فعلًا، أشعر بالراحة والغضب، يبدو العالم أكثر اتساعًا حين نكون تائهين، وأظن أن تلك هي جاذبية التيه، تلك الإمكانيات

الكثيرة الناتجة عن عدم المعرفة، وأغضب لأنه تيه مؤقت، لن يستغرق دقائق حتى أستعيد الجغرافيا، أفكر في كل النصائح الكلاسيكية للتيه، ولا يبدو لي الاستغراق في تيه مزيف هو الحل، عليّ أن أواجه التيه الأصلي، أستعيد الجغرافيا فجأة، كما فقدتها فجأة، أنطلق بالسيارة.

١٢

أصل إلى البيت، لا تزال لديّ الرغبة العارمة نفسها في الهرب. قدماي ساخنتان وأنفاسي قصيرة متتالية. استنفدت الأماكن التي يمكنني الهرب إليها دون أن أكشف نفسي، وأحاول، للمرة الأولى منذ أمس، أن أقاوم هذه الرغبة. يدق الجرس، أفتح الباب، امرأة أربعينية تخبرني أنها جارة لي، وأنها لم تنَم منذ أسبوع كامل بسبب الأصوات في شقتي. أخبرها أنه من المستحيل أن تكون هناك أي أصوات، أعيش وحدي، ولم أستقبل أحدًا في بيتي منذ مدة. تصر على كلامها، فأعدها أن أضع ذلك في ذهني. أنهي الحوار معها وديًّا، أغلق الباب، وألعنها. حطب جديد على نار رغبة الهرب.

ليس هذا بموقف عصيب، أعرف ذلك، معرفتي كأنها تحدث في عالم آخر غير الذي أنا فيه. البيت أمسى مكانًا للصراع بيني وبين رغبة الهرب التي تغذيها عشرات السيناريوهات الكارثية غير المعقولة، والتي أعرف -دون جدوى- لا معقوليتها. أحاول منذ زمان طويل أن أحاصر قلقي؛ بمنعه من الدخول من أماكن معينة، أماكن يمكنني أن أستريح فيها فعلًا دون أن أخشى شيئًا، لهذا دائمًا ما عاملت البيوت التي سكنت فيها بأقصى حرص ممكن، ومبتعدًا عن المشكلات والصراعات مهما كنت محقًّا فيها. في الخارج عندي معارك كثيرة، وفي عقلي أخوض معارك لا نهاية لها.

تقصر أنفاسي أكثر، وأعرف أن هذا الحدث التافه الاعتيادي سيُنغِّص عليّ حياتي أكثر لعدة أسابيع. أغضب، أرتبك بين رغبتين؛ رغبة في التكوُّر بلا

حراك، ورغبة في الهرب بسرعة. أحاول التنفس بهدوء، أقنع نفسي أنها تعلم تمامًا أنه ليس هناك أي خطر، أستسلم لحقيقة أن هذه ليلة أخرى من الليالي البغيضة في حياتي. أحاول تشتيت نفسي بمشاهدة شيء ما، لا أنجح، أبعث إلى لمياء برسالة أنني بحاجة إلى رؤيتها، لكنها لا ترد. أرسل إلى نهى أنني قلِق ولا أعرف ماذا أفعل، تتصل بي، تحكي لي يومها بالتفصيل الممل، تضحك بسبب ودون سبب، تسألني إن كنت أحب الحديث عمَّا يقلقني بالضبط، أخبرها أنني أعرف أنه أمر لا يقلق، لكني أقلق، وغاضب لأنني أقلق دون داعٍ: «زهقت من دايرة القلق دي، ومش عارف ليه، وهتخلَّص منها إزاي». تحكي لي آخر فيلم شاهدته بالتفصيل، ثم أمورًا عائلية كثيرة. تصمت برهة، ثم تخبرني إن كنت أحب أن أحكي أنا أيضًا.

- مش عارف أبدأ أحكي منين وإزاي.
- جرب والحكايات تجيب بعضها.
- هتتوهي مني، أنا عارف نفسي.
- جرب مش هتخسر.
- نجرب.

الفصل الثانى

«فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا
لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا»

١٣

كل حكاية تبدأ من المنتصف. نلتقي بمن سيصبحون أصدقاءنا وهم في منتصفات حكايات أخرى، وكل جديد متاهة، لهذا تبدو الشوارع أطول كثيرًا حين نقطعها للمرة الأولى، نستغرق بعض الوقت لنفك خيوطها.

أذكر اليوم الذي سمعت فيه عن بسمة للمرة الأولى من سعيد، كان ذلك قبل عشر سنوات، متفائلين ومرحين، بعدما طردنا أحدهم من مكتبه بعد أن اختلفنا معه في الرأي. أظن الآن أنه كان يريد أن يكون أستاذنا الروحي. غضب الرجل من اختلافنا معه إلى درجة كانت كافية ليلقي كوب الشاي من النافذة. أعلم؛ حياتي مليئة بأشخاص يلقون بأشيائهم بنسبة تفوق المتوسط. نغادره. كان الرجل يائسًا، ومِن ضمن مَن يعُدُّهم تلاميذه، كنا نبدو الأنجب والأكثر ذكاءً، وخسارته لنا كانت فقدانًا لصورة عن ذاته، صورة يبدو فيها سمِحًا كفايةً ليكون مؤثرًا في أشخاص متنوعي المشارب والخصال. يتصل الرجل على هاتفينا ولا نرد. أدرَك ما أوقع نفسه فيه. الساعة كانت الحادية عشرة صباحًا، ولسبب ما كان العراك مع الرجل مدعاة للفرح، أو للاسترخاء، هذا الاسترخاء الذي يحدث أحيانًا حين تفقد ما كنت تريد أن تفقده، ولكنك لم تمتلك الشجاعة من قبل.

نقف أمام عربة فول، أطلب طبق فول، وسعيد يطلب طبق فول بالبيض. يستند بكوعه إلى العربة، تضرب الشمس عينيه، يغلقهما قليلًا، ويسألني: «إنت عارف بسمة؟»

١٤

يخبرني سعيد أن أتحرك الآن إليه لأمر ضروري. أخبره أن أمامي اثنتين وثلاثين دقيقة بالضبط قبل أن أكون أمام بيته. ثلاثون دقيقة هي ما تخبرني به الخريطة، ودقيقتان لأكون في السيارة أقودها.

تفتح والدته لي الباب وتحتضنني. والده يجلس على الطاولة الكبيرة، يرفع لي يده بالسلام، ويسألني عن أحوالي. تهز لي أخته الكبرى رأسها بالسلام. تجري نحوي أخته الأصغر وتتشبث بي. أحملها، وأضعها فوق كتفي، وأدخل عليه. يرمي الكتاب الذي يقرؤه، ويمسك بأخته الصغيرة ويضعها أرضًا، ويخبرها أن تخرج للعب خارج الغرفة. سرير أخيه الكبير مضموم إلى سريره، ليصنعا معًا سريرًا آخر عملاقًا يبرز الفقد ولا يخفيه.

- هقول لك حاجة وما تتحمِّسش.
- دي أسهل حاجة، أنا ما بتحمِّسش أصلًا.
- لأ، هتتحمِّس إنك تقول لي بلاش العبط دا.
- قول يا عم.
- أنا هسيب المستشفى.
- تمام، و...؟
- هسافر مع لسمة أعيش في فرنسا.
- أوكي.
- أوكي؟!
- أقصد كمِّل، إيه الخطة يعني؟
- هنتجوز وأسافر معاها، هي تخلص الدكتوراه وأنا أشوف أي حاجة ألعب فيها.
- هتشتغل إيه يعني؟
- لسه ما قررتش.

- السفر مش بالسهولة دي حتى لو اتجوزتوا.
- لأ بالسهولة دي.
- أوكي، وقلت حاجة لنسمة طيب؟
- لأ، قلت أقول لك الأول.
- ما كنتش أعرف إن علاقتكم بالجدية دي أصلًا.
- مهيش بالجدية دي.
- إيه اللي فايتني هنا؟
- أنا استقلت خلاص من المستشفى، وهقول لها النهارده، بس قلت أقول لك برضو.
- هتقول لها إيه؟
- إني حابب نتجوز.
- وإنت حابب تتجوز؟
- آه.
- بتحبها؟
- أعتقد.
- هي بتحبك؟
- يعني بشكل أو آخر.
- طب ما أنا هتحمِّس فعلًا كدا إني أقول لك إنت واعي بتعمل إيه؟

١٥

كانفجارات بعيدة، تعلو كركرة الشيشة. أتوتر من الصوت، أحاول التماسك دون أن أنفجر بدوري طالبًا منهم أن يتوقفوا عن الكركرة. تحضر راندا لتكتمل المجموعة، تجلس بيني وبين سعيد، سعيد بينها وبين حسام، حسام بينه وبين هالة، هالة بينه وبيني. يتحدث حسام وهالة وراندا عن

عملهم، يكركر سعيد بالشيشة، أهز قدمي، أشعر بالغربة، أفكر أن أترك هذه الجلسة وأعود إلى بيتي. تأتي نسمة، تسحب كرسيًّا وتجلس في مواجهة سعيد، لكنها توجه حديثها إليَّ.

- عاجبك صاحبك؟

أشير بيدي بجوار وجهي وأنا أبتسم نصف ساخر أن «فكك منه».

- عارف هو نيِّل إيه النهارده؟

- عارف.

- ورأيك؟

- إنتي عارفة إني مش شاري موضوع جوازكم دا كله على بعضه، فخرَّجوني منه.

- دا شخر لأبويا على التليفون!

يضحك سعيد وأضحك، وتضحك هالة، ويصفق حسام مدعيًا الفخر، وتمتعض راندا.

- ما كانتش شخرة طويلة.

- «معلش يا بابا دي ما كانتش شخرة طويلة».

يضحك وتضحك.

- دا حالف إنك لو قرَّبت من البيت بس هيقتلك.

- مستفز أوي.

- ما لو مش عاوز الحكاية دي كلها نفضها سيرة.

يتقدم إلى الأمام، يمسك بكُمَّي قميصه الطويلين.

- هصلِّح الموضوع. آسف فعلًا.

ترسل إليه قبلة رصينة في الهواء، يتفاداها بالتحرك بسرعة إلى اليمين،

تتظاهر أنها تُقرّب مسدسًا من فمها تحشوه بالقبلات، ثم تطلق عليه في كل اتجاه، يتظاهر بالموت. أدرك أنه هنا أيضًا قد وقع ضحية ثقته القوية بحساباته الدقيقة. إنه يحبها.

في فرح راندا وحسام، يرقص بصحبة نسمة، أرقص بصحبة لمياء، ترقص هالة بصحبة علي. ونحن نتناول الطعام، يرفع سعيد كوب مياهه عاليًا، ويقول: «في صحة اجتماعنا الأخير».

١٦

تراوغ السيارات ببراعة بطل فيلم أكشن مبتذل. حزامي مربوط، بينما ترفض ربط حزامها. بعد كل مراوغة تنظر بسرعة إليّ بحثًا عن إعجاب غير موجود، وتقول نكات لا أجدها مضحكة، لكنها تضحك عليها. ماذا أفعل هنا مع فتاة لا تعجبني، ودون قدرة حتى على التظاهر بالعكس؟

إحصائيًا، أعتقد أنها من أجمل ألف امرأة على الكوكب، ولا بد أنها اعتادت رفض الحب كما يعتاد المرء إخبار أمه أنه لن يحب القلقاس أبدًا. تتحدث عن مغامراتها في العمل، مغامراتها في أمريكا وهي صغيرة، مغامراتها في قريتهم حين عادت إلى مصر، مغامراتها في الجامعة، حتى مغامراتها مع الأطباء النفسيين. في وقت آخر أقول لنفسي إنها مزيفة، ثم أعاتب نفسي على ذلك، من أنا لأحكم على شخص آخر بذلك؟ ولمجرد أن حدود قناعها واضحة، هل يجعلها ذلك مزيفة؟ ألست ألبس قناعًا أنا الآخر، وأخفف من آرائي التي أعلم أنها لن تعجبها؛ فقط لتظل موجودة؟ ألست أنا الشخص السيء هنا؟ أنا الذي أعي أنني ألبس قناعًا؟ ألست أنا الشخص الذي يشعر بعدم الانتماء لكنه لا يعلنه لأنه يخاف فقد ما لا يحبه؟ أليس جزءًا من اقتناعنا بأي قناع هو الوقت المستغرق في صناعة هذا القناع وإتقان تفاصيله، أم أنها فقط لم تستغرق وقتًا طويلًا في قناعها لأنها نادرًا ما احتاجت إليه؟

فتاة جميلة شديدة الذكاء، ربما أذكى من عرفت، تتمرد على كل شيء تواجهه، لكني لا أعرف لماذا لا أستطيع قطع المسافة بيننا. هل ذكاؤها هو ما يبعدني عنها؛ خوف أنها ستكشفني بسهولة؟ هل لأنه من المستحيل أن نعرف أحدًا ونحن لا نعرف أنفسنا؟

- بتفكر في إيه كدا؟
- بصراحة؟
- بصراحة.
- إن لو كلنا لازم نلبس أقنعة نواجه بيها الحياة، عشان فرضية وجود وجه أصلي دي مجرد فرضية مستحيلة الإثبات، فإمتى نقدر نقول إننا شايفين شخص معين على ما هو عليه فعلًا؟
- وليه لازم نشوف شخص على ما هو عليه فعلا ما دام مفيش وجه أصلي؟
- لإن الأقنعة ما دام مصنوعة فهي قابلة للتلف والاستبدال. لو أنا دلوقتي، وأنا دلوقتي في الحقيقة، بمثِّل قدامك إني شخص معين، شخص هادي وعقلاني ومتفهم، وإنتي عارفة إن دا مجرد قناع، وإن مفيش حاجة أصلية ورا القناع دا، إلا قناع تاني، حتى مش قناع أكثر أصالة، هو مجرد قناع تاني، ليه بتكملي كلامك معايا دلوقتي؟ ليه ما توقّفيش العربية وتقولي لي «انزل يللا أنا ما أعرفكش»؟
- آه، أوكي. so dark, man. بس خليني أفكر. لو أنا عارفة إن الشخص اللي بيكلمني دلوقتي هو مجرد قناع، وإن أنا كمان لابسة قناع، وإحنا كدا قناعين بيتكلموا سوا، فإنت بتسأل هنا «لو القناعين دول هم اللي بيتكلموا، إحنا بننيِّل إيه هنا بقى؟» مش كدا؟
- برافو، بالظبط.
- كدا بتفترض وجه أصلي.
- برافو تاني، بس إننا بنسأل السؤال دا نفسه، شكنا دا نفسه، مش

بيخلينا أكثر من مجرد الأقنعة دي، مش وجه أصلي، بس هل فيه شيء تاني أعمق أو أثبت أو أضعف أو أكثر قبحًا؟ أي حاجة تانية يعني؟

- جايز، وجايز الشك دا مرتبط بوجود القناع مش بوجود الوجه، جزء من القناع نفسه. وآه، عارفة.
- عارفة إيه؟
- إن بداية فكرتك دي إن ليه بنت حلوة وذكية ومتحققة، وأهلها كويسين، حاسة بالغضب دا، إيه اللي يخليها تتمرد، أو حتى تدعي إنها بتتمرد على اللي كل حاجة، مش كدا؟
- ...
- عادي يا عم، هي جت عليك.

اقترح أفلاطون ما نعلمه جميعًا: أن كل شيء نعرفه لا نعرفه إلا كصورة لمثال أصلي موجود في السماء. واستغرقت البشرية آلاف السنوات ليقترح فرويد أن كل ما نعرفه لا نعرفه إلا كصورة لمثال أصلي موجود في الماضي. وتقترح كل المذاهب السياسية مثالًا أصليًّا، في الماضي أو المستقبل، علينا السعي إليه. ويقترح سعيد أن كل مجموعة أصدقاء هي محاولة لصنع صورة لمثال أصلي لـ«الشلَّة»، مثال لم نتجاوز فقدانه، لكن هذه الشلة الأصلية نفسها مُعرَّضة لفقدان أصالتها إذا ما تمكنت شلة جديدة من أن تكون أقرب إلى صورة الشلة الأصلية من الشلة الأصلية نفسها، أي أن تفي بالوعود المُضمَرة التي لم تتمكن الأولى من تحقيقها، وبهذا نحن لا نتحرك بعيدًا عن «شلتنا الأصلية» دائمًا؛ فهذه الشلة نفسها تتحرك هي الأخرى مع الزمن، ويضرب لي مثالًا بي وبمهند.

بشكل ما كان مهند هو مثال الصداقة في حياته، صديق الطفولة الذي استمر معه إلى الجامعة، وخاضا كل شيء معًا، ولا يوجد أي شيء لم يفعلاه معًا أو لم يخبر به أحدهما الآخر، يتحركان دومًا كفرد واحد. ومع انفلات خيوط مهند، كنت أنا صورة الصداقة لهذا المثال، أي إن صداقتنا لم تكُن في بدايتها إلا كصورة، ليس بمعنى أنها مزيفة، ولكن أنه تعامل معي كما تعود أن يتعامل مع مهند. وهكذا قطعنا أميالًا في صداقتنا أسرع من الطبيعي، نتحرك أيضًا كشخص واحد، نقابل أصدقاءنا معًا، نخرج معًا، إن كنت تعرف أيًا منا جيدًا فأنت تعرف الشخص الآخر جيدًا. أنا مهند المُحدَّث والمضبوط على الاهتمامات الجديدة.

أفكر وهو يحدثني أنني بالضبط أصنع صداقتنا بالطريقة نفسها، دائمًا ما كان بجواري صديق نفعل كل شيء معًا، وحولنا دائرة أصدقاء، هم جزء من المجموعة، لكننا دومًا المجموعة نفسها. قبل سعيد، كان هناك ثلاثة صُودِف أن اسم كلٍّ منهم وائل. وائل مسعد في الابتدائي والإعدادي والثانوي، رفيق تعلُّم الدراجات والصيد والتدبُّن الظاهري والتزويغ من المدرسة للذهاب إلى السينما ولعب الكرة وشرب السجائر ومقابلة الفتيات خارج المدرسة، تعلَّم فتح المطاوي، والذهاب إلى الأفراح ومشاهدة الراقصات. ووائل حازم، في الجامعة، رفيق الفشل الدراسي وكتابة الشعر والاهتمام بالسياسة. ثم وائل سمير، في فترة ما بعد الجامعة، رفيق البارات والمظاهرات والأفكار الكبرى وجلسات المقاهي التي تزيد على عشرين شخصًا، ومحاولات الكتابات الروائية، والبحث عن عمل، والعمل معًا دائمًا. ثم سعيد، النسخة المُحدَّثة من كلٍّ منهم، مشترك معهم جميعًا في أنه الشخص الدافع في الصداقة، الذي يبحث عن أشياء نفعلها، هو من يقترح العالم، وأنا من يضع الخطة.

هكذا كان وجودي دائمًا في علاقاتي؛ اجتماعيًا كفايةً للاندماج في أي مجموعة، وانطوائيًا كفايةً لكي لا أضع نفسي وحيدًا في أي مجموعة دون صديق واحد حقيقي. مضافًا إلى كل ذلك أنني دائمًا ما أحسست أن سعيد هو النسخة المُحدَّثة مني أنا نفسي؛ أنشط وأكثر مرحًا وغضبًا وحبًا للأشياء

الجديدة. وفي رأيه أنا لسخته المُحدَّثة، أهدأ وأكثر حذرًا، وعلى حد قوله أكثر قدرة على الانخراط في علاقات مكثفة المشاعر، تحطمني، لأدخل في علاقات جديدة، تحطمني، دون أن أتحطم تمامًا في النهاية. وهو يقول الجملة الأخيرة أفكر أن هذا أقرب شخص إليّ في حياتي، وهو لا يستطيع رؤية أنني بالفعل محطم تمامًا.

١٨

إطار من الخشب مُعلَّقة فيه صورتنا معًا، ولابتوب، وحقيبة، وكرسيان متحركان. تجلس لمياء أمام اللابتوب في العمل، بينما أنا ألعب بالكرسي المتحرك. كانت هذه المرة الأولى التي أذهب إلى عملها. أستغرب من فكرة صورتنا معًا على مكتبها. تقول إنها تكون مبسوطة وأنا موجود دائمًا. لم نكُن رسميًّا إلا أصدقاء، وضمنيًّا نعرف أننا لسنا أصدقاء، لكننا لا نعرف ماذا نحن إذن. يأتي جمال ويتحدث عن فيلم دخله في السينما، وعن مرض أبيه، وعن معركته مع أمه. تأتي مها وتقف بجواره، يستند بيده إلى الحائط كأنه يحتضنها، تبدو سعيدة. تخبرهما لمياء أننا نفكر في قضاء إجازة أسبوع معًا. لم أعلم ذلك. بعد رحيلهما تخبرني أنها تفكر أن نذهب إلى مدينة ساحلية لمدة أسبوع معًا، ما دمت لا أعمل الآن، وما دامت تستطيع أن تعمل من خارج المكتب. أرحب بذلك.

في المدينة البعيدة، نجر حقائبنا وراءنا، نتمدد أمام البحر. نذهب إلى عدة فنادق وكامبات ولا تعجبنا، نتمدد أمام البحر. أتصل بأحد معارفي، وأخبره أنني بحاجة إلى شقتين متجاورتين الآن. في خلال ساعة يكون قد اتصل بصديق له ورتَّب الأمر. تجلس معي حتى يحين موعد نومها، ثم تذهب. أجلس لمشاهدة مسلسل على اللابتوب، وأنتبه أن في الخارج تقف سيارة بلا حراك، يخرج منها رأس رجل يشاهد الشارع، ومن حين إلى آخر ينظر إلى نافذتنا. أخاف، أتمشى في الشقة مستثارًا من الخوف والأفكار. لم أكُن أعلم

حينها التوصيف الطبي لحالتي هذه.

بعد تسع ساعات تستيقظ، توقظني، أخبرها أني نمت جيدًا. نذهب للتمشية. أتعصب بسبب ودون سبب، وأعلم ذلك، لكني غير قادر على إيقاف نفسي، وأمامي أسبوع كامل أعلم أنه سيكون من أسوأ أيام حياتي. حين نعود إلى المنزل، أدرك أن السيارة، التي رأيتها، سيارة معطوبة، تلتصق بمرآتها كيسة سوداء، هي التي تخيلت ليلًا أنها رجل ينظر ناحيتي، لكن ذلك لم يغير شيئًا في حواسي المستثارة لخلق خطر من أي شيء. أنظر خلفي كل عدة ثوانٍ، أراقب تعبيرات الجيران جيدًا، أخطط أن تكون مسيرتنا إلى البيت متعرجة وغير مباشرة؛ لتضليل أي أحد يتتبعنا.

في البيت، أغلق الأنوار، وأجلس وأنا أمسك سكينًا ضخمًا، اشتريته بادعاء أنني من سيطهو غدًا. مر الأسبوع وأنا نصف مجنون، وهي نصف محبطة من الأجازة غير الجميلة، ومن مزاجي الغريب.

في طريق العودة، قالت لي إنه رغم كل شيء فهي لم تكُن رحلة سيئة تمامًا. مازحتها بأنني أعرف أنها رحلة سيئة تمامًا مهما حاولنا تقليل سقف التوقعات. وفي حدود ما تعرفه، رأيت أنها كانت أكثر تفهُّمًا لي من أقصى آمالي. هذه إنسانة تحملت بصبر وتؤدة ما لا أحتمله في نفسي، أو على الأقل هذا ما اعتقدته في حينها.

١٩

ورقتان مكتوبتان بالإنجليزية عن الوسواس القهري، ومثلهما عن اضطراب الهلع، يدفعهم نحوي الطبيب النفسي، الذي أراه لأول مرة، بينما يسألني كيف أشرب الشاي ليطلبه من سكرتيرته. أقرؤها على عجل، وأخبره أنني أعرف كل المكتوب. يبتسم كأنه كان يعرف أنني سأقول ذلك. اخترته عشوائيًا من تطبيق على الهاتف. لم أنَم منذ خمسة أيام سوى ثلاث ساعات، لكنه بعد نصف ساعة

لم أحكِ له فيها أي شيء ذي قيمة في رأيي، قال إنني أعاني من الوسواس القهري واضطراب الهلع واكتئاب حاد. أي كلام في أي كلام طبعًا. يكتب ستة أدوية. أسأله إن كان فيها منوم، يقول إن تأثيرها المهدئ سيجعلني أنام، ويكتب لي ورقة ببعض النشاطات التي يمكنني أن أفعلها لأسهل على نفسي عملية النوم؛ مثل أن أشاهد فيلمًا كوميديًّا قبل النوم.

أعود إليه اليوم التالي، أخبره أنني لم أنَم وأحتاج أن أنام. يكتب لي منومًا. يسألني إن كنت تناولت بقية الأدوية، لم أفعل. كان قد طلب مني ألا أقرأ الأوراق الداخلية للأدوية، وأنها عامة ليست بها أعراض جانبية إلا بعض الغثيان والدوار وزغللة العين، عدا ذلك كل الأمور الأخرى نادرة الحدوث. أقرأ الأوراق الداخلية جميعها. واحد من كل مئة ألف قد يجعله أحد تلك الأدوية يُصاب بنوبة قلبية، إذن لن أتناوله، وهكذا أستبعد الأدوية واحدًا تلو الآخر. لكني لم أقرأ ما هو مكتوب داخل علبة المنوم؛ لأنني أريد أن أنام فعلًا. أتناوله في الثانية عشرة بالضبط، ثم تنتابني نوبة استثارة أن هذا الدواء هو ما سيقتلني، وأنني إن لم أنَم في الساعة التي تلي الدواء فهذا دليل أنني لن أنام مرة أخرى في حياتي.

أتحرك في الصالة، أعبث بأدوات المطبخ. مرت نصف ساعة ولم يحدث أي شيء، ولا أشعر أنني أقترب من النوم. أدور في البيت كنحلة. بعد ساعة ونصف من النشاط المحموم أشعر أنني أهدأ، أتمدد على الكنبة، وأحاول التفكير في أشياء مطمئنة. تمر نصف ساعة أخرى، أدخن سيجارة، أفكر في الذهاب إلى صديق، لكن لا أفعل، وألقي بنفسي مرة أخرى على السرير، وأفكر أن هذه هي النهاية، لن أنام مرة أخرى في حياتي، لكني أنام.

٢٠

هل هو الوفاء؟

دائمًا ما تأسرني مشاهد الوفاء في الدراما، مهما كانت مبتذلة. «تلك الطمأنينة الأبدية بينكما: أن سيفان سيفك، صوتان صوتك». هل هذا هو العنصر الجوهري في الصداقة، أو الحب؟ أمل دنقل يعتقد أنها أشياء لا تُشترى، إذن هل هي موجودة ابتداءً (كشعور سحري لا يحتاج إلى مبررات)، أم أن تراكُمًا من المعرفة والرفقة هو ما يخلقها (فالوفاء من ثم ابن خالص للتجربة، وهو إذن خيار عقلاني)؟ في بقية القصيدة يميل أمل إلى الخيار الأول:

«ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك،

حشْكما -فجأةً- بالرجولة،

هذا الحياء الذي يكبت الشوق حين تعانقُه،

الصمتُ -مبتسمين- لتأنيب أمكما

وكأنكما

ما تزالان طفلين!»

لكن إن كان الوفاء أصليًا، لأنه ابن الطفولة، أو ابن النشأة المشتركة في سياق عارم الحميمية (بحيث لا يمكنك الشعور بالغربة مرة أخرى تجاه ذلك الشخص)، فهل الصداقة هي الوفاء فقط، أم أنها تضم إلى الوفاء جمال الرفقة؟

في روابط الدم، الوفاء مفهوم؛ لأنه ابن استحالة تغيير الواقع. أخوك أخوك إلى الأبد، فكيف تكتسب بعض الصداقات هذا الشعور باستحالة تغيرها؟ هل الرفقة في المواقف الكبرى؟ هل تحتاج الصداقة إلى اشتراك في ذكرى أصلية تلعب دور الولادة في الشعور؛ كأنكما ابنين وأخوين لهذه التجربة الكبرى؟

راحة الصداقة ألا تحس أنك مضطر لإثبات أصالتها مرة تلو الأخرى. وحين تكون مضطرًا لإثبات وفائك مرة تلو الأخرى، تنتهي الصداقة وحدها؛ لأنه لم تعُد تلك المساحة الأليفة للراحة، بل أصبحت اختبارًا عليك أن تعبره كل يوم، تصبح أحد الأشياء التي تهرب منها لا إليها.

يمتلئ العالم بما لا نفهمه، بما نُضطَر إلى التفكير فيه، ونصنع عالمنا الصغير بحيث يكون مُتوقَّعًا ورتيبًا نسبيًّا؛ رتابة لا تقتل الوجود، ما زالت عامرة بالأحداث والتعرف على العالم، لكن دون تعريضك للخوف من الفقد كل ثانية.

يُروى عن النبي أنه قال: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره.

الصداقة، لا تفترض بالضرورة الموافقة دائمًا، تحتمل العتاب والمناقشة، لكنها تفترض استبعاد خيار الانسحاب، أو إعادة التفكير الجذري. حين تكون الصداقة مفتوحة على إمكانية الانتهاء، تنتهي.

ما جعل سعيد من أقرب أصدقائي هو شعوري باليقين؛ ليس أنه سيكون في صفي وأنا مخطئ، بل يقيني أنني لا يمكنني تخيُّل حجم خطأ أقترفه يجبره على الانسحاب من حياتي. سيكون غاضبًا، لكنه لن يهرب.

جاءتني هذه الفكرة لأول مرة وأنا في خضم التفكير في الانقطاع عن مجموعة ما؛ لأنني كنت مصرًا على أنني لن أكون هناك في وجود شخص بعينه كان يُشعرني بالضيق، رغم عدم وجود حجج متماسكة لديَّ. وكنت خجِلًا من شعوري هذا وعدم قدرتي على شرحه بالضبط. كنت أحبهم جميعًا، لكني كنت ضجِرًا من هذا الشخص.

ودون أن أتحدث، كنت أعرف سلفًا ليس فقط من سيختار صفي، ولكن الأهم من لن يربكه تضاؤل قدرتي على التسامح أحيانًا مع صفات سلبية معينة، ولن تؤثر في حكمه عليَّ.

في تلك المجموعة، كنت متأكدًا أنهم جميعًا سيختارونني. ولكن اثنين أو ثلاثة فقط هم من كنت أشعر أن مشاعري مُبرَّرة في نظرهم دائمًا. وبمجرد شعوري بذلك، كانت صداقتي بالبقية قد اختلت بالفعل.

٢١

في بداية معرفتي بسعيد، كان الأقرب إليَّ في عالمنا المشترك، لكن في عوالمي الأخرى، كان هناك من هم أقرب منه. وبتحطُّم هذه العوالم أو انتهائها، أصبح أقرب أصدقائي. بحسب تعبيره؛ ما يجعل لمعرفة ما أبعادًا أعمق هو شعور طرفيها بانهدام عوالمها الأخرى في التوقيت نفسه، بحيث يصبح بعضهما ملاذًا لبعض. الناس لاجئون أو مُهجَّرون على الدوام، وحين يحدث التآلف على جمال وعد القادم أكثر من الحنين إلى الماضي، يمكنك أن تبني معهم بيتًا جديدًا. لكن هناك من يشعرون بالوحدة ولا يتمكنون من بناء علاقات جديدة ولا يعرفون السبب، مع أنهم متيقنون من انهيار عوالمهم، ورغبتهم في مغادرتها، يفشلون لأنهم يظلون يستدعون أشباح هذه العوالم، يرثونها ويشكون للناس شعورهم بالغربة، يحملون وحدتهم كهوية، ما يعوق أي تآلف مستقبلي.

ومهما كنت متسامحًا مع الطبيعة البشرية، فهناك حقيقة أن الناس عمومًا لن تستثمر وقتها مع شخص يعترف بالتحطم، إلا في حالات قليلة، حين تكون جوانب شخصيته الأخرى أكثر بهاء بحيث تعميهم عنها، غير ذلك فالوحدة وحش يخلق نفسه؛ كلما تحدثت عنه، قال الناس لأنفسهم إذا كان وحيدًا هكذا ففي الأغلب هو يستحق ذلك. لا ينبع ذلك من قسوة بالضرورة،

ولكن لأنهم أيضًا لاجئون، وهم أيضًا بحاجة إلى من ينقذهم، وليس لديهم مانع أن يستند بعضهم إلى بعض، ولكن لن يسندوا شخصًا آخر إذا لم يمكنهم الاستناد إليه؛ دائما يجب أن يبقى الوعد أكثر وضوحًا من الوعيد.

٢٢

أنزل من بيت فادي، أترك السيارة في مكانها وأذهب مشيًا إلى المقهى حيث يجلس سعيد. أشتت أفكاري بأن أعد خطواتي إليه. في الخطوة السادسة والعشرين يرشني بالمياه صاحب محل بالخطأ، يعتذر بابتسامة. في الخطوة السابعة والثلاثين بعد المئة ألمح فتاة تجري مع كلبها، ووراءهما تجري بقية كلاب الشارع، يبدو كسباق ماراثوني. أصل في الخطوة الثامنة بعد المائة السادسة، متأخرًا دقيقتين عن الموعد الذي أخبرته به. أخبره أن حساباتي أخطأت لأني لم أضع في الحسبان أن هناك ماراثونًا للكلاب سأنتظر عبوره أولًا. أحكي له عن الفتاة وكلبها، يقول لي إنه يظن أنه يعرفها، تبدو عشرينية لكنها ثلاثينية، اسمها سمر. أندهش، لكنه بعدها يفتح لي أحد مواقع التواصل على هاتفه ليريني فيديو نشرته وهي تجري أمام الكلاب وتضحك. أخبره أن المفارقة ستكون أجمل لو أنني ظهرت بالمصادفة في الفيديو. يحدثني أكثر عن سمر، صديقة نوران أخت نسمة الكبرى، كان حاضرًا في فرحها قبل ثلاث سنوات. انفصلت سمر عن زوجها بعدها بسنتين، بعد خيانته لها، خانته هي الأخرى، فاكتشف خيانتها، فأصبح يُحضر عشيقاته في الشقة، فأحضرت عشاقها. ملحمة خيانة.

– إنت يابني إزاي ما تعرفش القصة دي؟! دي نسمة قعدت تحكي فيها كام شهر متواصلين.

– ممكن كان الفترة اللي ما كنتش أنا ونسمة بنتكلم فيها، عشان الموضوع إياه. المهم خلصت القصة دي إزاي؟

- كسرت حاجته في البيت، فنزل يكسر لها عربيتها، فاتصلت بنوران تسألها إزاي ممكن تولّع في الشقة كلها بدون ما يحصل لها حاجة أو الموضوع يوصل للجيران، فجت نوران أخدتها بيتهم، واتطلقوا.
- نهاية سعيدة الحمد لله.
- آه، بس بعد ما اتطلقوا، راحت وكسرت له عربيته برضو.
- ونوران هي الشخص الراكز في القصة فعلًا؟
- ما هي نوران راحت معاها وهي بتكسر العربية تكسر معاها.
- أوكي، كدا الموضوع منطقي أكتر.
- لسمة كانت بتقول إنها بتخاف من أختها عشان مندفعة. وفي الأول، كنت بكون عاوز أقول لها «مندفعة إزاي بالنسبة لك؟ دا إنتي محدش عارف يلحقك، أمّال هي بتعمل ايه في حياتها؟» فحكت لي حكاية جوازها الأولاني.
- آه، الألماني، مش كدا؟
- بحبها أوي القصة دي.
- رواية.
- إنت عامل إيه؟
- عادي، وإنت؟
- عادي.
- وفين لسمة؟
- وفين لمياء؟
- وفين أيام زمان؟
- وإنت عامل إيه؟

يضحك.

٢٣

- عملت إيه في اللي اتفقنا نعمله؟
- ما اتفقناش نعمله، قلتي لي أعمله، وقلت لك أنا عمري في حياتي، حتى وأنا في المدرسة، ما كنت بعمل الواجب.
- أيوا، بس قلنا إن كويس نعرف التريجرز بتاعة قلقك عشان نعرف نتعامل معاها.
- قلتي، وما تكلمينيش بصيغة الجماعة.
- آسفة.
- أنا اللي آسف فعلًا، ما أقصدش أكون حاد.
- طب عملت إيه الأسبوع اللي فات؟
- مفيش حاجة مهمة.
- قول حاجات مش مهمة.
- الشغل عادي، البيت عادي، وانفصلت أنا وماريهان، ولسه بروح الجيم، وبحاول أبطل سجاير.
- مش كنت بتقول الأسبوع اللي فات إنكو اتفقتوا تكمّلوا سوا؟!
- آه، بس ما حصلش.
- إيه اللي حصل؟
- انفصلنا.
- انفصلتوا ليه؟
- مش حابّين نكمّل سوا.
- ليه؟

– أعتقد إنها خانتني.

– إزاي؟!

– ما أعتقدش إنها خانتني، هي خانتني.

– الخيانة كلمة كبيرة.

– مهيش كلمة كبيرة، كلمة خمس حروف. عارفة إيه كلمة كبيرة؟ «فأسقيناكموه»، دي كلمة كبيرة.

– طب دا حصل إمتى؟

– من سبع شهور.

– ما حكيتليش عنه خالص.

– أُمَّال يعني كنت بقطع شراييني أشوف لون دمي؟!

– إشمعنى دلوقتي؟

– هي اللي انفصلت مش أنا.

– قالت لك إيه؟

– قالت ننفصل.

– قالت إيه بالظبط؟

– قالت عاوزة ننفصل.

– قالت ليه عاوزة تنفصل؟

– كلام كليشيهي ملوش معنى ولا قيمة، كلام من اللي بيتقال في المواقف دي.

– وقلت لها إيه؟

– قلت لها تمام، ماشي.

– بس كدا؟

– هقول إيه تاني؟

– طب حسيت بنوبات قلق الأسبوع دا؟

– أيوا.

– تفتكر موقف مُحدَّد حسيت فيه كدا؟

– أيوا.

– ممكن تقوله؟

– يوم الإتنين كنت راجع البيت، لقيت حد وقَّفني، وسألني عن اسمي، وقال لي إنه بيشبه عليَّا. ما عرفتوش، وما قلتلوش اسمي، بس ما نمتش يومها وقعدت أبص في شباك الصالة كل شوية، أشوف فيه حد واقف قدام البيت ولا لأ.

– ينفع أشوف إيدك؟

– لأ.

٢٤

في كتابه الشهير «حياة رجل غاضب»، يحكي الكاتب الإيطالي أندريا أوتانو عن أبيه الذي قضى حياته كلها دون أصدقاء. كان هناك «رفاق سلاح»، لكن لم يكُن هناك أصدقاء قط. الرواية مكتوبة من منظور طفل، يرى أباه غاضبًا دائمًا دون أن يعرف السبب، ودون أن تدري أمه السبب. رجل غاضب، وبعيد، ومنزوٍ.

في العاشرة من عمره، يقفز والده من شرفة منزلهم. يلتقي معارف والده، ويستجوبهم، يستجوب أعمامه وعماته، يستجوب جدَّيه، يستجوب والدته، ولوهلة في منتصف الكتاب، تشعر أنه على وشك أن يدينهم جميعًا، بعدها تشعر أنه على وشك إدانة أبيه، بعدها يترك الموضوع كله، ويحاكم مفهوم الصداقة؛ هذا الانتظار الداخلي لأن يرانا أحد ما، الوحدة بصفتها دليلًا على عطب ما، عطب كان من الممكن الانفلات منه لولا الاستثمار البشري في

أفكار الحب والصداقة. لو كان والده ماتيو متخلصًا تمامًا من أي حنين لكسر الوحدة لتمكّن من احتمالها.

يُدين أندريا الصداقة بأنها من قتلت أباه، وفي رأيه، علينا في مرحلة ما في حياتنا أن نتقبل فكرة أننا أبدًا لن نعبر الخندق الذي يفصلنا عن الآخرين، وألا نحزن أبدًا لذلك، كل علاقة بشرية هي علاقة ضرورية ومستحيلة، ضرورية لأننا لا نستطيع فهم أنفسنا، أو حتى التأكد من وجودنا، دون أن نعرف الآخرين، ومستحيلة لأننا لن نعرفهم أبدًا.

في نظره، لم يكُن والده معطوبًا، لكنه كان أسير مفهوم معطوبيته. كان ناجحًا في عمله، متزوجًا بمن يحب، له ولد يحبه، عائلة كبيرة متماسكة وسعيدة، وكان شخصًا مراعيًا وحنونًا قدر إمكانه، وعلى كل ذلك، كان شجاعًا وفتيًا. يقول ابنه أندريا إنه في طفولته دائمًا ما كان يندفع في مغامراته؛ لأنه كان يظن أن أباه شخص لا يُقهَر وأن بوسعه تحطيم أي أحد يحاول أن يؤذي ابنه، لكنه لم يعلم قط أن هذا البطل الشخصي، الشجاع والقوي والمندفع، من الممكن أن تحطمه فكرة، حدَّ الانتحار.

لطالما أحببت في متولي طريقته في جعل العالم غير مفهومًا، لازمته في الكلام «إنت فاهم حاجة؟»، ومع أن التفسير الأوَّلي جدًّا لهذه اللازمة أنه يعتقد أن حديثه ذكي جدًّا بحيث أنك لن تفهمه من المرة الأولى، بعدها تدرك أنه يقصد أن الكلام بالفعل غير مفهوم، وأنه لا طريقة لفهمه، هو لا يتأكد من أنك قد فهمته، بل أنك ما زلت معه، لم تفهم شيئًا. قلت له مرة إنني أحب عالمه حيث كل غير مفهوم وغير مُتوقَّع.

«العالم مُتوقَّع، لكنه غير مفهوم، ممكن نعرف الحاجات بتحصل بتسلسل عامل إزاي، تقدر تخلينا نتوقعها، لكنها بتفضل غير مفهومة، فاهم حاجة؟»

بسبب هذه اللازمة كنت أقترح على مها وهبة أننا يجب أن نحاول أن نجعله ومروة يرتبطان؛ فقط لأرى كيف سيتجادلان. أمثل الحوار:

- أنا قصدي إن مشاعري تجاهك واضحة كفاية، عشان أقول إني حابب نفضل سوا، لكنها مش واضحة كفاية، عشان الإرادة دي تكون بوعد بإننا نفضل سوا، فاهمة حاجة؟
- أنا كمان حاسة إني بكون مبسوطة سوا، لكني مش مبسوطة اللي هو طايرة، واخد بالك معايا؟ مبسوطة اللي هو تمام، واخد بالك؟ تمام مش أوحش حاجة، ومش لازم يكون برضو أحلى حاجة، واخد بالك؟
- واخد طبعًا، فاهمة إنتي حاجة؟
- فاهمة، واخد بالك إنت؟

زوجان مثاليان لإنجاب أطفال مندهشين على الدوام، ومتشككين جذريًا في إمكانية التواصل البشري.

كان أحمد متولي زميل دراسة لمجدي، ثم زميل عمل لهبة، ثم صديق الطفولة المُقرَّب لجمال، صديق مها المُقرَّب، وحين حدثت مشكلة مها وجمال، انحاز إليها تمامًا، قاطعًا صِلاته بجمال، وبكل أصدقائه الذي دافعوا عن جمال. كان موقفه -في ما أعتقد- أكثر جذرية من موقف مها نفسها. جلس معنا مرة ونحن نفكر مع مها في ما يمكنها أن تفعله، ثم أصبح موجودًا. إن كنا جميعًا لاجئين في صداقاتنا، فهو كان منفيًا بشكل إرادي، وحيدًا، وعنيدًا، ويشعر بالخيانة. ولا أنكر أنني كنت أفكر كثيرًا أنني غير قادر على فعل ما فعله؛ هدم عالمي مرة واحدة وبثبات، وبلا ندم. هل هي قسوة باردة، أم حنان أدرك تموضعه الخاطئ؟ هل كان يدرك بالضبط حجم ما يفعله؟ ففي عرف الناس؛ لقد خان صديقه المُقرَّب، مهما رضخوا أنه كان يمتلك الحجة الأخلاقية الأقوى، إلا إنه ما زال قد خان صديقه، ويعلم إذن كل من سيتحلَّق حوله أنهم مُعرَّضون في لحظة ما للانقلاب عليهم. في رأي سعيد، ما فعله متولي كان صائبًا وشجاعًا، وهذه صفات قد نقول إننا نحترمها، لكننا نخشاها أكثر من حبنا لها، وأغلبنا سيحب أن يكون من أصدقائه شخص شجاع مثل

هذا، لكنه لن يكون صديقه المُقرَّب؛ فالصديق الأقرب نرجو أن يقف معنا في أخطائنا، وكان إذن على متولي أن يعيش حياته وهو يعلم أن نمطًا معينًا من الصداقة قد خسره إلى الأبد.

٢٦

سأحكي لك حكاية. كان جذيمة الأبرش أحد ملوك العرب قبل الإسلام، وقد سمع بفتى ظريف يُدعى عديًّا، فأرسل إليه ليكون نديمًا له يسليه. كان الفتى جميلًا، واستطاع أن يوقع رقاشة أخت الملك في حبه، واقترحت عليه رقاشة أن يسقي الملك الخمر خالصًا، ويسقي ندماءه خمرًا مخلوطًا؛ فإذا سكر الملك، طلب عدي من الملك الزواج بأخته، فقبل الملك، وأشهَد عدي الحضور، ثم ذهب ليعرس بزوجته. في الصباح، رأى الملك عديًّا فرِحًا متعطرًا، فسأله: «ما شأنك؟»، قال: «هذه آثار العرس»، قال له: «أيُّ عرس؟»، قال: «عرسي على رقاشة»، فطارده الملك حتى قتله، ولكن جذيمة حملت منه، وأنجبت عَمرًا، وأحب الملك عمرًا كابنه، ثم اختفى عمرو فترة من الزمن، حتى وجده اثنان، عقيل ومالك، فلما عرفاه قالا إن هذه ستكون هديتهما للملك، فحسَّنا ثيابه وأدخلاه على جذيمة، فلما رآه جذيمة، قال لهما: «الحكم لكما، فاحكما»، أي «اطلبا ما تشاءان»، فقالا: «ننادمك ما بقيت وبقينا». فصارت العرب تضرب مثلًا بطول معشر الندماء بأنهم ك «ندماني جذيمة».

وأشهر ما قالت العرب في ذلك قول متمم بن نويرة وهو يرثي أخاه مالكًا:

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جذيمة حِقْبَةً .. مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا .. لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

أحكي هذه القصة لأنني دائمًا ما وجدت البيت الأخير من أعذب ما قيل في الرثاء. متمم، الذي قضى حياته مع أخيه، يقول إنه، وبالضبط، بسبب طول اجتماعهما، يشعر أنهما لم يقضيا ليلة واحدة معًا، كأنها كانت خيالًا تامًّا؛ لأن

بعض الصداقات لا تشبع منها أبدًا، كأنها لا تزال في صعود، دون أن تبلغ أبدًا منزلة الاكتمال، وما دامت لم تبلغها فهي لم تُحقَّق بعد، وخسارتها في أي لحظة هي خسارة بأثر رجعي لكل ما كان.

ويُحكى أن عمر بن الخطاب لما التقى بمتمم وسمع هذين البيتين، قال لمتمم: «هذا والله هو التأبين، لوددت أني أقول الشعر حتى أرثي أخي بمثل ما رثيت به أخاك». وكان زيد بن الخطاب قد قُتِل قبلها في معركة اليمامة، وهي المعركة التي دارت بين المسلمين من جهة بقيادة خالد بن الوليد، وبين بني حنيفة يترأسهم مسيلمة الكذاب. وتكمل القصة أن متممًا قال لعمر: «لو أن أخي مات على ما مات أخوك ما رثيته»، يقصد أنه لو مات مسلمًا ففي ذلك العزاء الكافي، فقال عمر: «ما عزَّاني أحد عن أخي بمثل ما عزَّاني به متمم». ولكن يبقى الجزء الأخير من القصة مشكلًا؛ لأنه يتناقض مع رواية أشهر تقول إن عمر بن الخطاب كان في الأصل متزعمًا للصحابة الغاضبين من قتل خالد بن الوليد لمالك بن نويرة؛ لاعتقاد الأول برِدَّة الثاني، لكن الخليفة أبا بكر رأى أن خالدًا اجتهد فأخطأ، ودفع الدية لمتمم، وبهذا لا يستقيم أن يحكم متمم على أخيه بالردة.

في البيتين السابقين لهذين البيتين، يقول متمم في أخيه:

وَكَانَ جَنَاحِي إِنْ نَهَضْتُ أَقَلَّنِي .. وَيَحْوِي الْجَنَاحُ الرِّيشَ أَنْ يَتَنَزَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا .. أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرى وَتُبَّعَا

وكان زيد الأخ الأكبر لعمر، وأسلم قبله، ويُروى أن عمر قال لأخيه يوم أحد: «البس درعي»، فرفض زيد لرغبته في الشهادة، فلم يلبسها أيٌّ منهما، كما يُروى أن عمر قال يحن إلى أخيه بعد وفاته: «ما هبَّت الصبا إلا وأنا أجد ريح زيد».

وفي البيت قبل الأبيات الأربعة السابقة، يقول متمم:

«وَإِنِّي مَتَى أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ .. وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا».

٢٧

في المرة الأولى التي التقيت فيها بسنت، كنت مع سعيد، وكنا جميعًا في حفلة لفرقة تخلط بين الأناشيد الصوفية وموسيقى الأندرجراوند، في غرفة صغيرة، نجلس بجوار الحائط على الأرض، داير ما يدور؛ هي في مواجهتي، يعرف أحدنا الآخر شكلًا من المظاهرات، تغمز لي، تفتعل وجهًا كأنها على وشك القيء من رداءة الفرقة، لا أعرف ماذا أفعل، أبتسم، أرفع أنفي ضاغطًا إياها، لكن لا أغمز.

في الخارج، يُسلِّم عليها سعيد بحرارة؛ كانا زميلين في المدرسة الثانوية المشتركة.

- إزاي ما أعرفش دا؟
- وهو أنا حكيت لك على كل حد قابلته في العالم؟ دي كانت ملكة المدرسة.

جميلة جدًا، لكن انطباعك الأول عنها، ربما لوقفتها المنتصبة، وطولها، أنها قوية جدًا.

- كنا عيال.

تحكي حكاية اليوم الذي أنقذت فيه سعيد من خناقة بين مدرستهم والمدرسة المجاورة، بادعاء أنها أمه، ليست أخته الكبرى، بل أمه. ربما المفاجأة والاندهاش من عبثية الحيلة هما ما أنقذه فعلًا.

- شكرًا يا ماما.

تضحك. يأتي مازن ويحيط خصرها بيده، تتفلت بعدم جدية، يزجرها بعينيه كأم تزجر طفلًا. أحتقره فورًا لشعوره بالتهديد من مجرد أنها تضحك معنا، لكن سعيد يجاريه؛ يهمشها في حديثه، ويتحدث مع مازن عن الفرقة.

أندهش مما يفعله. يتحدث مازن عن مشروعه الموسيقى القادم، يتحمّس سعيد، أو هكذا بدا لي، تتدخل بسنت في الحديث بين حين وآخر لتُثني على موهبة صديقها وشدة إعجابها به، لكن سعيدًا يظل يتجاهلها، تشعر بالحرج، أشعر بالخزي من سعيد. حين يستأذن مازن وبسنت، أبسط يدي في الهواء علامةً على عدم الفهم.

يقول لي سعيد: «عارف هتقول إيه، هحكي لك».

٢٨

في كتابها «هاوية تسقط في رجل»، تتحدث الفيلسوفة الألمانية حنا روزنبرغ عن أننا ننضج أحيانًا بتحطيم الآخرين، بالتغذي على أرواحهم حتى تجف تمامًا، وأنه على قسوة هذا التشبيه، فإننا نفعل ذلك، على الرغم منا، دون أن نلتبه، ومهما كنا عطوفين وغير متمحورين حول أنفسنا، ففي مرحلة ما، سندهس أحدًا ما في طريقنا، بتعبيرها «نحن مصائب تقع للآخرين»، هاوية تسقط داخلهم، ولا يتمكنون من الفرار منها/ من أنفسهم، ومن دماء أرواحهم هذه، نظهر مبهرين للآخرين. نحن ناجون لأننا لم نتردد لحظة في التزاحم ودهس الآخرين بينما نفر جميعًا من مصيبة ما.

انتقد الفيلسوف الأمريكي مايكل بيرغ الكتاب بأنه يحاول خلق عقدة ذنب أصلية، لكنها ليست قديمة، عقدة ذنب متجددة، وملازمة للإنسان بمحض وجوده ذاته، لكن عقدة الذنب هذه لا تُوَلِّد الخلاص، بل الوحشية؛ لأنها تصر على عدم إمكانية الفرار منها إلا بالموت. في رأيه، يبقى الترتيب الكلاسيكي لجملة العنوان هو الأصح؛ «رجل يسقط في الهاوية»؛ لأننا يجب ألا نخجل من قراراتنا ومشاعرنا مهما كانت حمقاء، نحن من نُسقِط أنفسنا في هاوية الحب؛ باستهتارنا أو خوفنا أو حتى رغبتنا في المغامرة، والطريقة الوحيد للصعود من الهاوية هي بامتلاك الإنسان زمام هاويته، بالسقوط في هاوية حب هاويته.

من جانبها، في الكتاب، تدعو الكاتبة قراءها أن يفكروا وحدهم في أشخاص معينين، دهسوهم في طريقهم، ثم مضوا فرِحين بالنجاة، وتقول إن فرحتهم هذه ليست دليلًا على وحشيتهم، بل هي تقبُّل واقعي لشروط البقاء؛ فصحيح أننا مصائب تحدث للآخرين، لكننا لسنا هذه المصائب نفسها، مثلما الهاوية ليست شيئًا يمكن الإمساك به، هي فراغ فقط، الهاوية ليست هويتنا، بل فراغنا، وحين يُقال عن إنسان إنه سقط في هاوية الحب، فهو لم يسقط في الحب، بل في انعدامه، وحين يتهم صديق صديقه أنه سقط من نظره، فهو لم يتدنَّ في مرتبات الصداقة، بل يتلاشى وجوده، ونحن لسنا مسؤولين عن فراغنا، لكننا مسؤولون عن حيزنا الواقعي، ألا نخدع أحدًا، ولا نوهمه، أن نكون صرحاء ووقحين دومًا، ونشير بأيدينا إلى هذا الفراغ لتحذير الناس منه، هاويتنا بتعبيرها هي «نيجاتيف» وجودنا، هي ليست نحن، لكنها -أيضًا- ليست شيئًا آخر غير أنفسنا، «فاهم حاجة؟»

٢٩

– هسألك مجموعة أسئلة كدا حاول تجاوبني عليهم.

– تمام.

– بتحس ساعات إنك مش قادر تتحكم في مشاعرك؟

– مش فاهم.

– يعني بتحس إن مشاعرك هي اللي بتقودك؟

– قليل جدًّا، ممكن تكون مشاعري شديدة، بس غالبًا بتصرف بعد ما أفكر.

– طب بتحس إنك عارف إنت مين؟

– إنتي بتسأليني أسئلة عشان تعرفي لو أنا بوردرلاين ولا لأ، مش كدا؟

– يعني خلينا نشوف سوا.

- صحيح أنا قطَّعت إيدي، بس دا ما كانش شيء مندفع. أنا فكرت، وقرَّرت إن الألم الجسدي ممكن يخفِّف من الألم النفسي، ما كانش قرار لحظي.
- طب بتحس ساعات بالفراغ جواك، أو إنك مش عارف إنت مين؟
- لا، أنا عارف أنا مين.
- طب بتحس إنك بتمر بتغيرات سريعة في شخصيتك وأفكارك؟
- لا، أنا نفس الشخص، بنفس الآراء والنظرة تجاه العالم، من اتناشر سنة على الأقل، يعني من وأنا عندي سبعتاشر سنة.
- ماشي. ممكن تقول لي كنت بتفكر في إيه بالظبط لما عملت كدا؟
- كنت بفكر إني لو عندي شعور بالذنب، إني حاسس إن أنا شخص معطوب، فالألم الجسدي ممكن يحسسني تمام، خدت عقابك.
- تقصد بإيه إنك شخص معطوب.
- إن بشكل عام طبيعتي الشخصية فيها شيء ناقص، أو محطم، بيخليني مش قادر أقوم بوظايفي الاجتماعية بالطريقة اللي بفكر إني المفروض أقوم بيها، كإن حاجة بتمنعني من دا.
- يعني كنت بتعاقب نفسك؟
- ما أقدرش أقول أيوا، أنا شايف العطب دا مش شيء أنا مسؤول عنه برضو، خضت معارك وخسرت.
- بس ما كنتش عاوز تنتحر؟
- مش بشكل أكيد، كنت أحب أنتحر، بس أنا مش متأكد، وحسيت إن على الأقل دا أقرب حاجة ممكن أعملها للانتحار، وكنت شارب شوية، ممكن لو ما كنتش شارب ما كنتش عملت دا.
- قلت لحد إنك عملت كدا؟
- صاحبتي، أو البنت اللي كانت صاحبتي، خدت بالها من إيدي.

- وبعدين؟
- ادّتني مرهم يساعد في إزالة آثار دا بسرعة.
- حد تاني؟
- لأ.
- ممكن أشوف إيدك؟
- لأ.

٣٠

تحكي الكتب أن جندح بن حجر بن الحارث الكندي، امرأ القيس، نشأ مُرفّهًا لاهيًا في بيت أبيه حجر ملك بني أسد وغطفان، ومن فتوته بدأ كتابة الشعر الإباحي والتغزل بالنساء، فأرسله والده إلى أصل قبيلتهم في حضرموت، فانتهز جندح الفرصة، وزاد في لهوه ومصاحبة الشباب الصيَّع ومغازلة الفتيات، والتنقل في كل مكان، وشرب الخمر كيفما اتفق، حتى أتاه وهو في لهوه وشربه خبر مقتل أبيه بعد انتفاض بني أسد عليه، فقال قولته الشهيرة: «ضيَّعني صغيرًا، وحمَّلني دمه كبيرًا. لا صحو اليوم ولا سُكْرَ غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر». وظل بعدها في دائرة لا تنتهي من محاولة التحالف مع قبائل ضد بني أسد للثأر لأبيه، ومن خوض المعارك ضدهم، غالبًا أحيانًا ومغلوبًا أحيانًا، ولاستعانة أعدائه بكسرى ملك الفرس، قرر اللجوء إلى قيصر ملك الروم، الذي أحسن استقباله ومده بالمساعدة، قبل أن يشي شخص ما بامرئ القيس لدى الملك، ويخبره أن امرأ القيس قد استمال إحدى نساء القصر إليه، فأرسل الملك بثياب مسمومة إلى امرئ قيس، وما إن لبسها حتى سقط مريضًا، يموت رويدًا رويدًا، فقال:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعُهَا .. وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنفُسَا

وإذا تركنا الحكاية جانبًا، وانتبهنا إلى البيت، سنجد أن امرأ القيس يرى

الموت كمراحل للتساقط؛ لا نموت مرة واحدة، نفقد نفسًا، ثم نفسًا، ثم نفسًا، حتى ننتهي بانتهاء الأنفس، يسقط جدار تلو جدار تلو جدار تلو جدار، ثم ينكشف الجدار الأخير عن الفراغ.

٣١

ليس الأمر فقط أن حديثنا يأخذ نمطًا معينًا من انسياب الكلام، ومعه طريقة بناء الحجة أو الحكاية، ولا أن الكلام نفسه يتطبع بالوقت بطبع هذا النمط، فيصعب علينا أن نُعبِّر عما لا يستطيع هذا النمط التعبير عنه، ولكن أيضًا كلامنا نفسه، حتى قبل تطبُّعه، يندر أن يكون جديدًا، وغالبًا ما تتحدث شبكاتنا الاجتماعية التاريخية من خلاله؛ فنادرًا ما يكون بوسعنا أن نقول شيئًا لم يتم تحريضنا على قوله، إما عن طريق الضغط المجتمعي، أو عن طريق مقاومتنا لهذا الضغط نفسه، وأي محاولة للتعالي على هذه الشبكات بتحليلها من أعلى أو بالوعي بها، لا يستطيع أي أحد أن يتجاوز حدودها أبدًا. هذه معضلة أي نظرية في التاريخ؛ أنها مهما بلغت بها بصيرتها، لن ترى أبعد من موضع قدميها.

هل يعني هذا أن تمردنا هو شيء مُهندَس سلفًا، ونكاد نكون -للمفارقة- مُجبَرين عليه. ليس تمامًا في ما أعتقد. تميل بعض التحليلات الاجتماعية والسياسية إلى رؤية أن حدًّا معينًا من الحرية والإحساس بالكرامة هو ما يستثير التمرد؛ إذ يكون التمرد هو غضب الذات من عدم اكتمال هذه الكرامة، بينما قدر عارم من المهانة غالبًا ما يستثير المراوغة لا التمرد؛ فالتمرد في النهاية هو ابن الوعود التي يقطعها المجتمع للفرد، ابن غاضب من عدم تحقُّقها، ونادرًا ما يكبر هذا التمرد ليتجاوز درجة تحقُّق هذه الوعود إلى التساؤل عن معناها هي نفسها، أو حتى البحث عن وعود مغايرة.

٣٢

توجد مفارقة بسيطة وقاسية: الألم غير المُحتمَل إلى درجة إجبار من يعانونه على الصراخ طلبًا للنجدة هو نفسه ما يبعد الآخرين عنهم. تحاول الصداقة في فتوتها مشاركة الآلام، رسم منافذ هروب في جدار المستقبل، اقتراح الحلول، لكن عند حد معين من الصراخ، يصبح الصارخ شخصًا آخر غير من تعرفه، لا تكرهه، وربما ما زلت تحترم صورته في حالته المتوازنة، لكنك لم تعُد تعرفه بعد الآن. ليس الذنب ذنبك، وبالطبع ليس ذنبه، غريزته للنجاة تُجبره على الصراخ، وغريزتك تُملي عليك الهرب.

يقول لي سعيد إن نسمة قالت له وهما ينفصلان أكثر مديح يمكن أن يُوجَّه إلى إنسان تطرده من حياتك.

– قالت لي: «في حالتك الطبيعية، بتكون أفضل وأجمل وأحن وأذكى إنسان في العالم».

– كلام جميل.

– «بس إنت ما بتكونش في حالتك الطبيعية دي إلا بشكل نادر جدًّا».

– كلام مش متماسك منطقيًّا.

– قلت لها دا بالظبط والله، بالحرف فعلًا.

– طب وفي حالتك اللي مش طبيعية دي بتكون عامل إزاي؟

– ما قالتش، أو بيني وبينك، أنا حسيت إني مبسوط إنها قالت لي كدا، فما ركزتش أوي في بقية الكلام.

– ما هي غالبًا انفصلت عنك عشان الخصلة الرِّمَّة دي.

يضحك.

٣٣

انضمت يسرا إلى مجموعتنا مصادفةً؛ وضعتها مروة بالخطأ في رسالة جماعية تدعونا فيها لقضاء سهرة رأس السنة في منزل والدها، حيث يقيم الرجل حفلًا سنويًّا يدعو فيه أصدقاءه، ولكي يكون مطمئنًّا على بناته، وفي الوقت نفسه يؤكد على تحرره الاجتماعي، يقول لهن إنه لن يسمح لهن بالخروج، لكن بإمكانهن دعوة من يشأن من أصدقائهن في قاعة أخرى من منزلهم الضخم. حتى ذلك الوقت، كانت يسرا مجرد زميلة لمروة في العمل، وعندما انتبهت مروة أنها وضعتها في الرسالة، كانت يسرا قد أجابت على الرسالة متحمسة ومؤكدة مجيئها.

وفي الحفلة، كانت صاخبة كفايةً لكي لا تشعرك بالغرابة، ورزينة كفايةً لتعلم أنها ليست غبية وتعرف أنها غريبة، ذلك حتى اللحظة التي سألت فيها مروة كل أحد أن يحكي أغرب شيء حدث له في حياته.

كانت يسرا على يمينها، فبدأت الحكي عندما سافرت إلى الأرجنتين بعد تخرُّجها، قضت ليلتها في غرفة مُستأجَرة داخل منزل غريب، فتح صاحب البيت عليها الغرفة ليلًا ونيته واضحة، فجرت إلى المطبخ وهددته بالسكين، بينما هو يصرخ فيها أنها مجنونة، وعندما حاول الاقتراب منها أكثر، طعنته عشوائيًّا دون أن تصيبه فعلًا، وغادرت دون أن تأخذ جواز سفرها، وظلت أسبوع تعيش في العراء، تبيع مشروبات في الشارع. ثم رآها مصري ما، وحكت له ما حدث، فذهب إلى بيت الرجل، وهدده، وأعاد جواز سفرها. وفي الليل، وهي في بيته، فتح غرفتها ليلًا، كانت تمسك سكينًا مستعدة:

- إنتي كويسة؟
- تمام.

فأغلق الباب مرة ثانية. كانت مصدومة وعازمة على القتال، وتشك في كل الناس، قبل أن يصارحها هذا الشاب، بعدها بيوم في المطار، أن صديقها السابق هو من اتصل به وبعث إليه صورتها، وأخبره أن يبحث عنها في المدينة، ويساعدها ولا يخبرها أنه يعرفها، وإلا ستشك فيه فورًا.

- كان بيحسبني مجنونة.

تعلم يقينًا وأنت تسمع القصة وهي تحكي أنها لم تطعنه، ولم تعِش أسبوعًا في الشارع. بعد عدد كافٍ من تحويرك لقصصك الشخصية، تعلم بالضبط أين يُحوِّر الناس حكاياتهم، وبالتأكيد أحست في منتصف الحكاية هي الأخرى أنها ترتكب خطأً كبيرًا، خطأً كبيرًا لا يمكنها التوقف عنه، وعليها قبول المقامرة؛ فإما أن تكون هذه لحظة للندم المستقبلي لنشر هشاشتها الشخصية على المشاع في محيط لا تعلم مدى أمانه، وإما لحظة بناء أساس لصداقة مبنية على الرفقة المُتخيَّلة في موقف عصيب. لكن مقامرتها نجحت؛ فحكايتها المُحوَّرة -في رأيي- دفعت البقية لحكي حكايات شديدة الحميمية، لم أكُن أعرف أغلبها، صحيح أنها لم تكُن على الدرجة نفسها من المأساوية، لكنها كانت حميمية كفايةً لتشعر يسرا أنها لم تخطئ الرهان، وأن الآخرين على استعداد لكشف هشاشتهم أيضًا أمامها. لكن ما كان غريبًا فعلًا هو ما حكاه سعيد؛ غريبًا لأني لم أسمعه قبل ذلك قط.

ليس في وقتها المثالي

ولا «متأخرة دومًا عن موعدها»

(كما افترض شخص أعرفه)

تحدث الأشياء في أثناء حدوث أشياء أخرى

لكلٍّ منها وزن اقتراحه الخاص للعالم

اقتراحات لا نملك الذكاء الكافي لدراستها

ولكلٍّ منها شبكة تفاعلاتها المشتبكة مع الشبكات الأخرى

اشتباكًا لا نملك الوقت الكافي لفصل خيوطه

(إن كان شيئًا مثل هذا ممكنًا)

بقول آخر:

لا تحدث الأشياء أبدًا

ولا حتى في سياقها المتفرد

إلا كافتراض نظري تمامًا

٣٥

في سيرتها الذاتية «ظل فقد شمسه»، لا تتحدث الكاتبة البيروفية ليلي آرليت أغلب الوقت عن نفسها، حتى إنك تشك في البداية أن هذه رواية وليست سيرة ذاتية. تتحدث ليلي فقط عن صديقتها لوكي. تعرفت على لوكي في تشيلي حيث كان والداهما يعملان طبيبين، ثم عادتا معًا إلى تشيلي وهما على مشارف المراهقة، لتخوضا معًا تجاربهما الأولى في الحب ثم في السياسة عندما تدخلان الجامعة.

كانت لوكي الأكثر شجاعة في الصديقتين؛ تخوض التجارب باطمئنان أحمق أنه لن يصيبها شيء سيئ أبدًا، ومع أن ليلي -لذلك تحديدًا- شعرت على الداوم أنها بحاجة إلى حماية صديقتها، فإن هذه الشجاعة الحمقاء نفسها كانت تطمئن ليلي، تُشعرها أنهما قادرتان على غزو العالم حين تنضجان. كانت أكثر تفوقًا دراسيًّا من صديقتها، لكن لوكي كانت تُعوِّض ذلك بمهاراتها

في الحفظ، حتى لو لم تفهم أي شيء مما تحفظه. وكان لدى لوكي خطة واضحة للاثنتين: فور تخرُّجهما ستذهبان إلى باريس، ومنها ستنطلقان إلى كل العالم، لن تدعا شيئًا ذكيًّا ولا غبيًّا إلا ستجربانه، ثم تختفي لوكي فجأة مع عائلتها. تظل ليلي تبحث عنها أربع سنوات، ثم تقرر المضي في خطتهما منفردة، بتعبيرها؛ فهي اختفت تمامًا فور اختفاء لوكي، لم تعُد الشخص نفسه، كظل فقد شمسه، يخشى أن ينتبه العابرون إلى عدم منطقية وجوده. تسافر إلى باريس، ثم إلى الأرجنتين، ثم البرازيل، ثم كوبا. تعمل طبيبة، وبائعة مخدرات، وثورية مسلحة، وراقصة في ملهى، شاعرة، روائية، فيلسوفة. تقول إنها دومًا ما ارتبطت بشخصين في الوقت نفسه؛ شخص لها، وشخص للوكي، بتعبيرها. كانت حياتها رسالة انتحار طويلة، غاضبة، ركيكة، عشوائية، مكتوبة بعشرات اللغات، التي لا تعرف أغلبها، وتبرر خياناتها المتتالية لرفقائها أنهم لم يروها قط؛ هي لا يمكن رؤيتها دون الشمس التي فقدت في بداية حياتها.

٣٦

نتعلم مبكرًا جدًّا، ربما في الثانية من عمرنا، أنه يمكننا قطع مسافات أطول إذا كان هناك ما نستند إليه. على أيدينا أن تتحرك تجاه ما سنستند إليه، بينما تختبر أرجلنا متانة الأرض. ليس هناك حائط بلا نهاية (هناك حوائط أطول من أخرى، لكن بالتعريف كل حائط حد لشيء ما، ولكل حد حد) ولا أرض راسخة (هناك أرض أرسخ من أخرى، لكن لكل صلابة نقطة تبدأ فيها بالتزعزع)، إذا تأخرت يدك في البحث عمَّا تستند إليه، أو تلكأت قدمك عن الخطوة الجديدة، فستسقط، وبقدر إحساسك بالآخرين، يمكن لتمايُلك ذاته أن يسند لحظيًّا الآخرين مثلما تستند إليهم (معادلة صعبة تتطلب إدراك الصلابة المؤقتة جدًّا لأشياء مستمرة في الاهتزاز). هذا ما نُعرِّفه بالصداقة، يختار بعضنا التحرك جماعات متمايلين متساندين، نغامر بالتأخر في الحركة إلى الأمام، لنضمن استمرار السند، وفي خلال ذلك، يمكن لثقلنا أن يوقع الآخرين، أو أن تخسف بنا أثقالهم. يختار

بعضنا الآخر استمرارية الحركة على ثبات الحوائط، يثبون بسرعة بينما يتهدم خلفهم ما كان يلامس أيديهم من لحظات، وهي مغامرة بدورها؛ إذ في لحظة أو أخرى، سينتبه حائط إلى مصير سابقيه ويراوغ مصيره ويبتعد، فيسقطون. نشعر بالدوار حين تتداعى آخر حوائطنا، حين لا تجد أقدامنا مكان خطوتها القادمة، ومثل نوح؛ نرسل طيورنا لاكتشاف إن كانت هناك أرض قريبة، وفي الانتظار، نمتن قِلقين لصبر الأرض المتلاشية تحتنا.

٣٧

تعمل مروة بالأساس كمصممة، لكنها دائمًا مرتبكة بين مواهبها واهتماماتها المتعددة الأخرى. عملت عارضة أزياء لفترة، وفتحت قناة يوتيوب تتحدث فيها عن الموضة، ثم قناة أخرى عن الطعام، وبالطبع رسامة تبيع لوحاتها مباشرةً عن طريق موقع إلكتروني صنعته لنفسها، ثم اشتركت في كتابة مسلسل، ثم أخذت تمثل في أفلام مستقلة، غالبيتها سيئة، ثم تعلمت البرمجة وعملت بها فترة قصيرة.

في كل ذلك لم تكُن صبورة لبناء التراكم الكافي لتنجح فعلًا في أي عمل، وكان التصميم هو المهنة الأساسية التي تصرف منه على نفسها. وهي على ذلك، امرأة جميلة، أنيقة، وظريفة، وأعتقد أن جزءًا كبيرًا من ضجرها يأتي من اعتقادها الأوَّلي بمواهبها، وأن على تلك المواهب أن تجعل طريقها سحريًّا، أنا نفسي أعتقد ذلك. وغير قلة صبرها، لا أجد سببًا متماسكًا لعدم نجاحها الفوري. في رأي سعيد هي لا تنجح لأنها ليست مضطرة إلى ذلك. قلت له إن هذا التفسير يبدو ذكيًّا جدًّا، لكنه فارغ تمامًا؛ لأنه يُسقطها كشخص من التحليل، ليضع مكانها «نمطها الطبقي»، ويُسقط مع هذا النمط أبعادها المغايرة الواضحة؛ فهي تقريبًا أكثر من نعرف اجتهادًا في العمل، ساخرة، مع غضب واضح، لكننا لم نكُن نفهمه، ببساطة؛ لأننا سنكتشف بعد ذلك أننا لم نكن نعلم عنها أي شيء.

لا أذكر بالضبط كيف أصبحت مروة ضمن المجموعة، أعتقد أنها عرفت هبة في البداية عندما اشترت الأخيرة منها لوحة ما، ثم طلبت منها لوحة ثانية، ثم ثالثة، حتى ظنت مروة أن في الأمر خدعة ما؛ فلوحاتها ليست بتلك الجودة. قالت ذلك لهبة، فأخبرتها الأخيرة أنها تعجبها فعلًا، وأنها تراها فرصة جيدة لها لتزيين بيت زواجها بلوحات غير تقليدية تعطيه نمطًا خاصًا به. وربما التقيناها أول مرة في فرح مجدي وهبة، كانت تجلس وحيدة، مبتسمة، دون ارتباك من هذه الوحدة. توجَّه إليها سعيد ليخبرها أنه استفاد من قناتها في الطبخ، لكنه استفاد أكثر من قناتها في الموضة، صحيح أنه لم يستوعب أغلب الأشياء، لكنه كان يستفيد من طريقة حكمها على الملابس، ويستخدمها حين يتكلم مع نسمة عن الملابس؛ ليبدو لها أنه يفهم هذا المجال، وأنه لم يصارح نسمة بهذه الحقيقة إلا بعد وقت طويل من ارتباطهما.

– يعني تقدري تقولي إنك سبب ارتباطنا.

قالها ونسمة تقف بجواره مائلة عليه بزاوية غير ملحوظة.

– يا رب الدنيا تمشي كويس، عشان ما تلبِّسونيش بعد كدا الذنب.

– لا لا، ما تخافيش، لو انفصلنا في أي وقت فهو هيكون السبب.

ردت نسمة.

يبتسم سعيد، متضايقًا.

أطلب منها أن توقف السيارة على أي جانب. كنت غاضبًا وشاعرًا بالوجود في المكان الخطأ. أعتذر منها، وأخبرها أنني لست بخير، لكني سأكون فلا تقلق، أحتاج فقط إلى تمضية بعض الوقت منفردًا. برحابة حقيقية وغير مُفتعَلة، توقف السيارة، وتخبرني ألا أتردد إن شعرت أني أحتاج إلى المساعدة، أشكرها.

أتمشى دون وجهة، أفكر أنني لا أعرف بالضبط الشخص الذي هو أنا، أنا غاضب عليه، على عقلانيته وهدوئه المُفتعَلين، على نبرة صوته، طريقته في الحديث، تعاليه المُفتعَل على جراح لم يستوعبها. أنا غاضب ولم أتعرف قط كيف أكون غاضبًا. أتذكر مواقف عشوائية مع لمياء وماريهان، مع مجدي، مع سعيد، أغضب أكثر؛ لأنني لم أُعبِّر عن غضبي وقتها، تحجَّجت دومًا أنه لا حاجة إلى قول ما هو واضح، وأنه من الحقير أن تجرح شخصًا لأنك جريح. أعرف أن هذا صحيح، وربما يكون أكثر صحة حتى بالنسبة إليَّ أنا نفسي، لكن ماذا أفعل بهذا الغضب بالضبط؟

أتذكر الحديث مع المعالجة النفسية، وأغضب، أتذكر اللقاء الأخير مع مروِة، وأغضب، أتذكر فادي، وأغضب، أتذكر ما أعرف أنني يجب أن أتجاهله، وأغضب، أتذكر أن سعيد قال ذات مرة إنه قط لم يرَني غاضبًا، فأغضب. دومًا كنت أعرف أنني غاضب، كيف لا يعرف أصدقائي أني غاضب؟ إلى أي مدى يمكنني أن أسير مرتديًا هذا القناع، منسجمًا مع الإشارات المُفتعَلة، والكلام المزيف الذي يُقال لأننا نعرف أنه يُقال في مثل هذه الظروف؟ وحتى لو تمردت على هذا القالب اللغوي، ماذا أريد فعلًا أن أقول؟ متى كانت آخر مرة تكلمت فيها فعلًا؟

أنا صامت تمامًا، مُشاهد ضجِر وحذِر، يجلس في المدرجات، بينما يتولى أحد آخر كل ما يتطلبه هذا القالب أن أفعله، أن أقوله، أفعالي مُهندَسة تمامًا، رصينة، كلامي، منضبط، ومُعلَّب، ومر على عمليات تصفية متعددة، ليخرج في النهاية بلا روح وبلا معنى، ذكي كفايةً ليظن الناس أنني أتحدث فعلًا، بينما أنا لا أستطيع تمزيق هذا الذي يكتم فمي.

أصرخ، تعانقني مروة، وتخبرني كم تستريح للحديث معي. أصرخ، تخبرني لمياء نصف ضاحكة أنها تحترم جدًّا كيف تصرفت ونحن ننفصل. أصرخ، تعاهدني ماريهان أن نبقى أصدقاء إلى الأبد. أصرخ، تخبرني هبة أنني نموذجها الأعلى في التعامل مع المصائب بهدوء تام ودون أن أفقد أعصابي. أصرخ، أذهب إلى هدير، نضحك، نتحدث في كل شيء، أصرخ، تضحك، أصرخ، نتمشى

في الشوارع، تضحك، ألعن سعيد على اليوم الذي عرفته فيه. تحكي لي هدير أن كل شيء جميل، أصرخ. تقول لي إن طاقتي إيجابية جدًّا، أصرخ. تحكي لي ندى عن مشكلاتها في العمل، أصرخ. يسألني متولي إن كنت «فاهم حاجة»، أصرخ. تقترب مني ياسمين، وتسألني: «إنت كويس؟»، أصرخ، تسألني مرة ثانية، أصرخ، تسألني مرة أخرى، أندهش، هل هي تسمعني فعلًا؟

الفصل الثالث

«كل الناس تتحدث عن الطقس. نحن لا نفعل»

٣٩

في رأي سعيد، تسعون بالمئة من كلامنا لا يرتبط فقط بسياقنا الاجتماعي والتاريخي، ولا حتى بالمحيط المباشر الذي نتحدث فيه، بل -أيضًا- بدورنا في الحديث؛ متى نتحدث بالضبط، بعد كم شخص من بداية النقاش. يقول إن الأمر يشبه طريقة عمل الإفيه؛ الأمر كله يتعلق بالتوقيت ليس إلا. ما تقوله يمكن لأي شخص أن يقوله، يتعلق الأمر دومًا بترتيبك في الكلام، وهذا غالبًا ما يخدعك، حتى إنك تتصور أنك مقتنع بما تقول. يضرب مثلًا ويقول إننا لو كنا نتحدث في موضوع تجريدي مثل هل للإنسان حرية إرادة أم لا، فالشخص الثالث في الحديث بالضرورة لن تكون إجابته بنعم أو لا، ربما الشخص الأول يمتلك حيز مناورة أكبر، لكن الشخص الثالث يجب أن يكون موقفه مركبًا، الشخص الرابع غالبًا ما سيحاول إعادة تأهيل حجة شخص من الاثنين الأولين، الشخص الخامس -وبالتحديد لأنه يأتي بعد كلام طويل- سيكون قد فقد صبره، وسيعتقد أنه غير مهتم بأي شكل بهذا الحوار كله، الشخص السادس، سيقترح موضوعًا جديدًا، وسيُغضب ذلك الشخصين الأولين؛ لأنهما يشعران أنهما مهتمان بشكل أصيل بالموضوع، غير أنهما في الحقيقة مهتمان بحسابات المكسب والخسارة الشخصية.

هذا تسطيح بالطبع؛ لأن المعادلة تشمل عوامل أخرى، مثل مدة تحدُّث كل شخص من هؤلاء، رأسماله الرمزي السالف لدى المجموعة. لكن ما يبقى سليمًا -في رأي سعيد- أنه يستحيل أبدًا -حتى بالنسبة إلى المنخرطين في هذا الحديث- معرفة إن كانوا مهتمين حقيقةً به أم لا.

تجلس في مواجهتي، تتلفت حولها، تتوقف عن الحركة لبرهة، ثم تنقل جلستها إلى جواري.

- عاوزة أكلمك في موضوع.
- أقدر أستنتج دا، لإننا قاعدين في كافيه لوحدنا.
- إيه الذكاء دا؟!
- إيه رأيك؟
- المهم، عاوزة أكلمك في موضوع.

أضحك.

- ماشي، هكلمك في الموضوع على طول. بخصوص سعيد، بس ما تقولُّوش خالص إننا اتقابلنا، تمام؟
- لأ، أعتقد إني في مرحلة ما هقول له، ممكن ما أقولُّوش في المدى القريب لو فعلًا فيه سبب.
- تصدق، إنت زي ما بيقول سعيد بالظبط، خبير في ضرب انسيابية الكلام.
- مش حقيقي، انسيابية الكلام مرتبطة دايمًا بقدرتنا على مقاطعته، لو المقاطعة هتأثر على انسيابيته، فانسيابيته دي ما كانتش إلا توهم طرف واحد.
- المهم، فكك، إنت عارف إن آخر مرة ...
- عارف.
- طب سيبني أحكي.
- اتفضلي.

- إنت عارف آخر مرة اتقابلنا قال لي إنه هو بيحب واحدة تانية؟
- قال بيحب واحدة تانية ولا كان بيحب واحدة تانية في وقت ما في علاقتكم؟
- أيوا، قال كان بيحب واحدة تانية، وإن دا السبب اللى خلانى حاسة إنه بعيد، وإن الكلام دا لم يتخطى موضوع المشاعر، اللي ما عبَّرش عنها بأي شكل، وخد قرار إننا نفضل سوا.
- تمام.
- فأنا بسألك هو كان بيحب واحدة تانية فعلًا؟
- وأنا أعرف إزاي؟
- تفتكر طيب إنه كان بيحب واحدة تانية؟
- لا ما أفتكرش.
- طب وقال كدا ليه؟
- مش عارفة فعلًا؟
- تقصد إيه؟
- أقصد مش عارفة فعلًا؟ فعلًا؟ فعلًا؟

لا تخفض نظرها، ولا ترتبك، تنظر في عينيَّ مباشرةً، لكني لا أرى من خلالهما أي شيء. ماذا يرى سعيد بالضبط؟ أتمنى أن أعرف.

لم تكُن بسمة الزيف كله، كما قال ذات مرة سعيد، وفي كل علاقاته، باستبعاد نسمة من هذا التأريخ ليتماسك منطقي، (وأعرف أن الاسمين متقاربان، لكنهما شخصان مختلفان)، دائمًا ما رأيتها أكثرهن مناسبة له، أو لأكون دقيقًا: الأكثر جدارة بالحب. صحيح كان من السهولة رميها بالزيف؛

لأنها غالبًا ما كانت تتحمس أكثر من اللازم لأشياء ثم تتركها مباشرةً، وتتحمس ضدها بالحماسة نفسها. لكنني، حين أدعي الحكمة بأثر رجعي، أجد أن حماستها تلك كانت شبيهة باللعب، لا أذكر أنها تحمست فعلًا بالشكل الكافي لأي شيء حتى يمكن توقُّع نمط تصرفاتها، كانت هوائية ومنطلقة، تهرب إلى الأمام دائمًا.

وإذا كانت بينها وبين نسمة صفة مشتركة فقد كانت قوة نظرتها، لا تخفض نظرها أبدًا، ولا ترتبك، لا اعتذار صريح ولا ضمني على أي شيء. في حالة نسمة، كانت معاداتها للاعتذارية -في رأيي- قسوة وتمحورًا حول ذاتها، الذات المُصمِّمة على الهرب إلى الأمام أيًّا كان. وفي حالة بسمة، كانت لا اعتذاريتها اعترافًا بقصور ما تعرفه، وبحدود اللعبة التي تلعبها، حتى مع هندي ومازن، يبدو لي أنها -في التحليل الأخير- لم تعِد أيًّا منهما بشيء، على العكس، رفضت الاثنين بوضوح وقسوة. لم تكُن نسمة ترفض الحب قط، أتصور أنها لم تعتقد أنه يمكن رفضه أصلًا؛ إذ لو كانت هذه عواطف الطرف الآخر فكيف يمكنها أن ترفضها؟ يمكنها أن ترفض التعامل معها بالشكل الذي لا تريده، لكنها تستمر في التعامل معه، كأنه شخص آخر غير هذا الذي يحمل الحب.

هل لهذا قرر سعيد أن يعترف بحبه لنسمة، ولم يعترف لبسمة قط؟ بالطبع لا يمكنني الادعاء أن حكمي موضوعي، وبالطبع يمكنني اختراع مراوغة لغوية تمنطق عكس ما أحاول الآن منطقته، لكني لن أفعل، لأني غاضب، ولأني أعرف أن علم النفس الحديث يقوم في سبيل منطقة الأشياء بتجذيرها في الماضي، وإذن تصبح كل الأفعال متساوية من حيث أنها تقريبًا تحدث لنا لنكون قابلين للتنبؤ، يجب سحب حرية إرادتنا من المعادلة؛ لأن حرية الإرادة هذه تعني أن بوسعنا -بعد السلسلة نفسها من الأسباب- أن نتخذ قرارات مختلفة، وهو شيء غير منطقي طبعًا، لكن إلى أي حد يمكن لهذا المنطق أن يهدئ من روع الغضب؟

٤٣

كنت جالسًا مع سعيد، فقلت له إنه إذا تحدث الإنسان لفترة كافية فيجب أن يناقض نفسه؛ لأن الكلام ينفد. لكنه اختلف معي ورأى أن ذلك ليس حتميًا؛ لأن بوسع المرء أن يدور في فلك الكلام إلى الأبد، مستشهدًا بقول منسوب إلى علي بن أبي طالب: «لولا أن الكلام يُعاد لنفد».

قلت له إننا لا نستطيع إعادة الكلام إلى الأبد، يمنعنا من ذلك الإحراج، إحراج أننا نعيده، وشعور بأننا إذا أعدنا كلامًا قلناه فإننا نقلل من احترام من يسمعنا؛ لأننا لا نمنحه كلامًا أصليًا. ولذلك دائمًا ما نقول لأصدقائنا ونحن نتكلم: «والله كنت لسه بقول لفلان كذا وكذا» أو «أنا دايمًا بقول كذا وكذا». صحيح طبعًا أن ذلك قد يُشعر الآخرين بتمركزنا حول ذواتنا إلى درجة أننا نقتبس من أنفسنا، وقد يكون شعورهم ذلك أحيانًا صحيحًا، لكن على العكس؛ في الأغلب نقتبس من أنفسنا لكي لا نتمركز حول ذواتنا، ولهذا يجب أن ننتبه فلا نقتبس من أنفسنا إلا في حضرة من يعلم أننا نحبه.

ولأن الكلام ينفد، تحول موضوعنا إلى مسألة أخرى طالما اختلفنا فيها: هل تحمل الاقتباسات أي معانٍ؟ هذا الهوس المستمر بالجمل الحكيمة القصيرة، المطرودة من سياقها، من أجل استعراض سريع ورخيص للمعرفة، هل تتمكن فيه الاقتباسات من أن تظل محتفظة بمعانيها بعد هذه المرمطة؟

كان جوابه بـ «نعم»، تحتفظ الاقتباسات غالبًا بمعانيها لأن الكلام أغلبه حشو. واختلفت معه، ليس فقط لأنه لا وسيلة مضمونة لفصل الحشو عن الأصيل، ولكن أيضًا لأن المعنى -إذا كان هناك معنى أصلًا- هو حيوان نطارده في الغابة، ولا يمكننا ابتداءً أن نستبعد أجزاءً من الغابة؛ لأن كل ما نعرفه يقينًا أن الحيوان في الغابة، أو على الأقل هذا ما نفترضه، «لإن غالبًا مفيش حيوان ومفيش غابة أصلًا». يضحك.

- أنا تهت.
- أنا كمان تهت، بس كنت بكمل الكلام بالقصور الذاتي مش أكتر.
- الحيوان اللي بيتكلم في آخر الطابور دا، شايفك.

يضحك.

- عملتوا إيه في التدوير على شقة؟
- والله شفنا كام حاجة مش بطالين.
- بس مش عاجبينها.
- هي كدا كدا مش هيعجبها حاجة يعني.
- عشان مش عاوزة تتجوز.

- عشان مش عاوزة تتجوز.

- طب ما فاكس موضوع الجواز.
- آه قلت لها، قالت لي لأ حابة نتجوز.
- وإنت عاوز تتجوز؟
- مش عارف برضو، حيوان في غابة فعلًا.
- هو إيه؟
- مش عارف والله.

يضحك.

ويقول أبو حيان التوحيدي في رسالته «الصداقة والصديق»: «سمعت ابن شاهين يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: استعيذوا بالله من شرار الناس، وكونوا من خيارهم على حذر».

وقال ابن مسعود: «ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب».

وقيل لأعرابي: «ألك صديق؟» قال: «أما صديق فلا، ولكن نصف صديق»، قيل: «فكيف انتفاعك به؟» قال: «انتفاع العريان بالثوب البالي».

وقال بعض الملاح: «إن الناس قد مُسِخوا خنازير، فإذا وجدت كلبًا فتمسَّك به».

وقال رجل لضيغم العابد: «أشتهي أن أشتري دارًا في جوارك حتى ألقاك في كل وقت»، فقال ضيغم: «المودة التي يفسدها تراخي اللقاء مدخولة».

وقال سهل بن هارون: «الصديق لا يُحاسَب، والعدو لا يُحتسَب له».

ويقول العباس بن الأحنف: «المرء قد يُرزَق أعداؤه منه ويشقى بالصديق الصديق».

وقال سقراط: «لا تكون كاملًا حتى يأمنك عدوك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك؟».

وقال ابن عائشة: «جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك».

وجاء رجل إلى مطيع بن إياس فقال: «قد جئتك خاطبًا»، قال: «لمن؟» قال: «لمودتك»، قال : «قد أنكحتكها وجعلت الصداق ألا تقبل فيَّ مقالة قائل».

وقال فيلسوف: «إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويُقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأُنس والأمن والثقة، ثم يوكلون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيرًا ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شرًّا أو ظنوه أذاعوه ونشروه».

وقيل لبزرجمهر: «ما بال معاداة الصديق أقرب مأخذًا من مصادقة العدو؟» قال: «لأن إنفاق المال أهون من كسبه، وهدم البناء أسهل من رفعه، وكسر الإناء أيسر من إصلاحه».

وكتب رجل إلى صديق له: «أما بعد؛ فإن كان إخوان الثقة كثيرًا فأنت أولهم، وإن كانوا قليلًا فأنت أوثقهم، وإن كانوا واحدًا فأنت هو!»

وكان العسجدي يقول كثيرًا: «الصداقة مرفوضة، والحفاظ معدوم، والوفاء اسم لا حقيقة له، والرعاية موقوفة على البذل، وأما الكرم فقد مات، والله يحيي الموتى!»

٤٤

من أدق شؤون الصداقة الكراهية بالامتداد؛ أن تمتد كراهية من يكرهون أصدقاءك لتشملك، وبالعكس؛ أن تمتد كراهية أصدقائك للآخرين لتكون واجبًا عليك. هي دقيقة لأن على هذه الكراهية أن تتوقف عند حد، وإلا لو كنت تود من يوده صديقك، وتكره كل من يكرهه، فأنت إذن بلا شخصية، وهذا يفرغ كراهيتك بالامتداد من قيمتها؛ لأن قيمتها بالضبط في أن تكره شخصًا أنت لست في حاجة إلى كراهيته، أم أن هذا بالضبط هو ما يضع مراتب للصداقة بمعيار الكراهية بالامتداد؟ -تلاحظ طبعًا أنني أُضطَر إلى مناقضة كلامي باستمراري في الحديث- أي هناك صداقات يكفيك فيها الحد الأدنى من الكراهية بالامتداد، وتكون هذه الكراهية لمن آذوا أصدقاءك بشكل مباشر لا يمكن الدفاع عنه؛ ثم صداقات يجب عليك فيها أن تتخذ صفَّ صديقك ظالمًا ومظلومًا (ظالمًا في ذوقه دون أن يؤذي أحدا)؛ لأنك ترجو من صديقك هذا أن يفعل المثل.

قد تكون الكراهية نفسها مصطلحًا ليس دقيقًا هنا، دعنا نقول على الأقل «تعادي من يعاديه»؛ فالعداوة -بعكس الكراهية- لا ترتبط بالضرورة بمشاعر قوية صادقة، هي في النهاية تتعلق بموضعك من العالم، ورغبتك في حماية جانبك؛ فأوثق ما يربط الصداقات هو كسر التماهي مع العالم، من أجل تماهٍ خاص وحميمي، ويرتبط ذلك بأننا غالبًا ما نشعر بالريبة تجاه هؤلاء الذين

يصادقون كل الناس؛ لأنك تعلم -كما أعلم- أن هؤلاء الناس، دائمًا، ليسوا فقط يريدون أن يربحوا العوالم كلها، ولكنهم لن يخاطروا أبدًا بأي خسارة، وفي داخلنا، نحمل احترامًا للمقامرة التي يتخذها الناس حين يختارون عالمًا ما، مغامرين بأنهم يخسرون في المقابل عوالم مثله، بينما «محبو العوالم كلها» سيعادونك في اللحظة التي تصبح فيها ورقة خاسرة، وفي النهاية، نحن نريد أن نربح العالم معًا، لكننا نريد أيضًا أن نخسره معًا.

على كل تعقيداتها، تبقى الكراهية بالامتداد أبسط من الكراهية بالإنابة؛ أن تنوب عن أصدقائك في كراهية أشخاص ترى أنهم على كان عليهم كراهيتهم لكنهم لم يفعلوا أو لم يقدروا على ذلك. هذا يحدث مثلًا حين ترى صديقك مستمرًا في علاقة تؤذيه، سواء كانت هذه العلاقة عاطفية أو علاقة صداقة أو حتى علاقة عمل. هي شديدة التعقيد لأنك في النهاية يجب أن تحترم خياراتهم؛ لأنهم أشخاص ناضجون (على الأقل في مستوى نضجك نفسه)، ومسؤولون عن أنفسهم، وأن تعرف أنك لا تعرف كل شيء عنهم أو عن علاقاتهم، فربما كان شريكهم العاطفي يمنحهم أشياء لا تراها، مثل الاعتراف، أو الحب (وللحب أشكال كريهة)، أشياء لا يمكنهم شرحها لك، ربما لأنهم لا يعرفون كيف يشرحونها، وربما لا يفهمونها تمامًا، وربما لأن الحكاية عن الأشياء السيئة لا تبدو مبتذلة مثل الحديث عن الأشياء الجميلة (وهذه خطيئة على البشرية تحمُّل ذنبها). لكنك، رغم كل ذلك، تكره بالإنابة فعلًا، لكن هنا لا تكون العداوة بالإنابة خيارًا ممكنًا؛ لأن أصدقاءك سيرون (نصف محقين) أنك تترك جانبهم وتختار جانبًا آخر. ولأنك لست شخصًا غبيًا، فستحاول تكوين صداقة بالامتداد مع هؤلاء الأشخاص، لكنك لن تفلح غالبًا (فالصداقة كالكراهية هي مشاعر يمكنك تزييف التعبير عنها، لكن لا يمكنك خلقها)؛ وستخلق مسافتك الإجبارية عن هذه العلاقة شرخًا في صداقتك نفسها، شرخًا تُمنِّي نفسك أنه سينجبر حين يرون ما تراه، أو في أقصى الآمال، أن ترى ما يرونه. إن حصل الأمر الثاني فكان وبها، لكن إن حصل الأول فعليك مرة أخرى أن تتظاهر بالمفاجأة حتى لا يعميك تباهيك الصفيق بالبصيرة عن احترام خسارة أصدقائك.

٤٥

أشعر بالانقباض في صدري، أعبر المنزل جيئة وذهابًا، أشعر بالخدر في قدميّ، أنفاسي متسارعة. أقوم بكل التمارين العديمة المعنى التي تصر عليها الطبيبة. أفكر في التكور في جانب الغرفة وأن أحاول أن أنسى العالم، لكني لا أستطيع، جسدي مستثار جدًّا. أفكر في الجري في الشارع. أفكر في الطبيب الذي أخبرني أن عليّ مشاهدة فيلم أو مسلسل كوميدي في هذه الحال لأخفف عن نفسي، أنا أصلًا لا أستطيع الجلوس على السرير.

قررت من نفسي من فترة التوقف عن تناول الدواء دون استشارة أحد. غالبًا ما يؤول الأمر إلى هذا الخراء مرة أخرى، العصر الذهبي لاعتراف الإنسان أنه كائن هش، و«ماشي بالعلاج»، جيل بكامله يمشي بالعلاج، وتشغل الاضطرابات النفسية نسبة ٢٠٪ من أي حديث جماعي يطول عن ربع ساعة، وتزيد النسبة بزيادة المدة.

وكان سعيد يقول إنه إذا تركت أي شخص في محيطك يتحدث دون مقاطعته فإنك ستجد كلمة «الدكتور بتاعي» على لسانه بعد أربع دقائق لا غير (لا أظن أن عليّ هنا التأكيد أن هذه إحصاءات ودراسات عاملها أنا وواحد صاحبي على القهوة حرفيًّا يعني). وبعد كلمة «الدكتور بتاعي» ستتوالى كلمات ونصائح بديهية تفكر كثيرًا قبل أن تقولها لأصدقائك حتى لا يسخروا منك ولا يظنوا أنك تسخر منهم، لكننا غالبًا ما نحتاج إلى سماع مثل هذه النصائح المفيدة الأولية؛ لأنها تعطينا الشعور بأن هناك حلًّا ما، ويا سلام بقى حين يأتي هذا الحل من شخص مُؤهَّل رسميًّا لقول مثل هذا الكلام، وحتى هو نفسه سيقول لك إنه لا يستطيع أن يرشدك أو يقترح عليك حلولًا حقيقية؛ فمثل هذه الحلول عليك اكتشافها بنفسك، أي إنه لا يملك الحق في عبور هذه البداهة، حتى لا يفتئت على ذاتك.

هو العصر الذهبي أيضًا لمعاملة الاضطرابات النفسية معاملة الأبراج الفلكية، لكن هذه المرة أنت تختار الاضطراب النفسي الأكثر جدارة بك، البعض يختار ما يبدو أكثر شاعرية، البعض يختار ما هو أكثر جموحًا، البعض يختار الأقرب إلى التعبير عن العبقرية. وبالطبع، في هذه المدعكة، والتطبيع مع الاضطرابات النفسية، قليلًا ما يستفيد المصابون بها فعلًا من حفل الجوائز المبهر هذا؛ لأنهم -ببساطة- مرضى فعلًا (عليَّ أن أعتذر لك لأنني أستخدم فعلًا، كتير فعلًا) وبحاجة إلى المساعدة، بل قد يكون لهذا الحفل الجماعي الصاخب أثر معاكس، لأن «ما كلنا مكتئبين وبايبولار وعندنا أفكار انتحارية وبوردرلاين ومرضى بالوسواس القهري، وعايشين عادي أهو يا عم، زي الفل».

بالطبع أنت تفكر الآن في أنني -هكذا- أحاول خصخصة المرض النفسي، بسحب ملكيته العامة، والإعلاء من معاناتي الخاصة، باحتكار الحق في الشكوى، وبجعل نفسي حكَمًا في مَن مِن حقه أن يقول ماذا. هذه -مرة أخرى- نتيجة طبيعية لاسترسالنا معًا في التفكير؛ فلكي تتحدث، يجب أن تجد ثغرة في كلامي، (وكلامي، كأي كلام، كلام غير مُحكَم، لأنه لو كان الكلام مُحكَمًا لنفد)، ثم أجد أنا ثغرة في كلامك، وأدينا بنتسلَّى يا باشا، واخد بالك إنت؟

٤٦

وإذا كانت هناك كراهية بالامتداد، فهناك بالطبع الصداقة بالامتداد. حين توثق علاقتك بأي أحد، فأنت تشاركه في ثروتك، ويشاركك في ثروتك، وتتناسب نسبة مشاركتك إياه مع قوة هذا الوثاق. بالتأكيد أنت تعرف ما أتكلم عنه؛ فالمجموعات لا تتشكل من شبكة من الصداقات الفردية المباشرة فقط، بل تكون معها شبكة أخرى من الصداقة بالامتداد، أو كما يشرح سعيد أن قربك أنت و«س» من «ص» يجعلكما مُؤهَّلين للتجالس، ثم قربكما من «ع» يجعلكما أهلًا للمسامرة، ولو كنتما مشتركين في أكثر من شخصين تكونان أهلًا للمنادمة، كما أن قرب كل منكما من «ص» وقرب «ص» من «ع» يُدخِلان «ع» في حيز

الناس الممكن الحديث معهم لكل منكما. وإذا كان «ع» قريبًا من «أ» القريب من «س»، يخطو «ع» نصف خطوة أخرى باتجاه «س»، ويقترب «أ» نصف خطوة من «ص»، وربع خطوة باتجاهك.

– أنا تهت.

– تهت في إيه بس؟ استنى هحاول أقولها بطريقة تانية.

– أنا فاهم الفكرة العامة، بس المعادلات الرياضية الوهمية دي بتتوهني.

– اللي أقصده ببساطة إن الناس ما بتتحركش كأفراد منعزلين، بل كأفراد في شبكة، كل خطوة لأي منهم في اتجاه بتأثر في الأطراف الأخرى، نتيجة لإنهم مربوطين مع بعض، وبشكل ما بتحدد حركتهم، في نفس الوقت اللي بتوفر فيه بالأساس إمكان الحركة نفسها. ولو بقينا أقل تجريدية، وقلنا إن بالأساس المجموعة دي مجرد افتراض نظري، لإن الإنسان بيتحرك في عدة مجموعات في نفس الوقت، وكل فرد من هذه المجموعات مربوط بمجموعات مختلفة عن الآخرين، فأثر حركة «س» في مجموعة «ص» ممكن نظريًّا يؤثر على حركة «ل» في مجموعة «م»، وهم ما يعرفوش بعض تمامًا.

– آه، أثر الفراشة، لفينا اللفة دي كلها عشان نرجع لأثر الفراشة. إيه الإحباط دا؟ كان شكلها فكرة ذكية والله.

يضحك.

لكن كل هذا لا ينفي أن الأصدقاء أحيانًا لا يُوجَدون في مجموعات؛ فهناك الأصدقاء الشاردون، صداقات فردية، يحتفظ كل طرف فيها بعالمه بعيدًا عن الآخر؛ لأننا نحتاج، بين الحين والآخر، إلى الراحة من عالمنا، والإحساس

بأننا غير محاصرين بالكامل.

الأصدقاء المبعثرون بين العوالم يُشعروننا أيضًا بأننا نطل من خلالهم على عالم آخر، عالم لسنا متحمسين كفايةً للعيش فيه، لكن لا بأس أن نلقي عليه نظرة من حين إلى آخر، كما أن نوعية هذه الأصدقاء تفيدنا لندرك محدودية ما نتحرك فيه، وأن ديناميكيات صداقاتنا ومعارفنا أقل وطأة مما نظن: الأمر مربك بعض الشيء طبعًا، ويشبه شعورك حين تعرف شخصًا لا يمثل له كاتبك المفضل أو فريقك الذي تشجعه أي جاذبية ممكنة، هو حتى لا يكرهه، يضايقك ذلك إلى درجة ما، لكنه بدرجة أخرى يحررك، أو بالضبط يشعرك بالتحرر؛ لأنك تقنع نفسك أنك في مكانك باختيارك، تحبه لأنك تختار ذلك، وليس لأن لديه هذا الأثر السحري، الذي تقع في شِراكه مثلما يقع كل الآخرين.

كانت هدير من أصدقائي المبعثرين؛ لا نملك أي صداقات مشتركة، عوالمنا مختلفة تمامًا، والتقينا مصادفة في الشارع، يعرف أحدنا اسم الآخر لا أكثر. هزت رأسها إلى الأسفل مبتسمة لي، لتقول لي إنها تدرك وجودي، وأنها تعرف أنني أدرك وجودها، لكن هذا الإدراك لا يرتقي إلى مرتبة الأسئلة الروتينية العامة عن الأحوال، والتخطيط المُتعمَّد فشله للقاء آخر. لكني أسأت فهم إشارتها، وذهبت للسلام عليها، سألتها عن الأحوال، وعمَّ تفعل في حياتها.

وأنا أقرب إليها، فكرت أنها تمتلك أجمل عينين في العالم، بشكل موضوعي تمامًا يعني، وفكرت أن أخبرها ذلك، لكني بالطبع لم أفعل، ولأنها هي الأخرى أساءت تأويل مبادرتي على أنها اندفاع قصدي للتعارف. (والأدق أنني أصلًا كنت أظن، لحسابات خاطئة أخرى، أنها صديقة نسمة صديقة سعيد، وفكرت أنها ستحكي لنسمة أني تجاهلتها، لتتعارك نسمة مع سعيد مرة أخرى عن عدم احترامي لها، فقررت المبادرة). بدأت تحكي لي عن أحوالها فعلًا. انتقلت أخيرًا إلى بيت قريب من بيتي لتكون قريبة من عملها، سألتني عن أماكن الأشياء في هذا المكان، أخبرتها ما أعرفه، سألتني عن أحوالي، فأجبت بالحد الذي ظننت أنه يساوي قدر ما حكت.

- بتحب تتمشى؟
- لأ.
- كنت هقول لك إني بتمشى كل يوم الصبح، فلو حابب تضم، ونقعد نتكلم ونسلي بعضنا.
- طب ما نتكلم على طول، مش لازم يكون فيه سبب للكلام.
- ماشي.

في المرة الثانية التي نلتقي فيها، الأولى بمعيار التعمُّد، حكت لي ما أظن أنه أجمل قصة حب فاشلة في العالم.

لسعيد نظرية: أننا نميل إلى صداقة هؤلاء الذين نتحدث معهم، ولا ترتبط هذه المقدرة أبدًا بصفات شخصية قِيَمية مثل الوفاء والمساندة والاحترام وغيرها؛ فهذه الصفات تُوجَد عند الكثيرين، ولا ترتبط حتى فقط بتعدُّد الاهتمامات المشتركة كفايةً للتنقل من موضوع يكاد كلامه ينفذ إلى موضوع آخر ثم آخر؛ فهذه الاهتمامات مشتركة أيضًا بين الكثيرين.

ما يقوله إن الحديث يشبه اللعب الجماعي، وكأي لعبة جماعية؛ لكل فرد موقعه في الفريق، مثلًا لا يمكن لفريق كرة القدم كله أن يلعب في الوسط أو المقدمة أو الدفاع أو يحرس المرمى، يجب أن يتوزعوا بشكل منظم على الملعب لتيسير انتقال الكرة من الدفاع إلى الهجوم، وهكذا هناك من الأصدقاء من يكون دوره في الأغلب الانطلاق بالكرة من أول الملعب لإيصالها إلى الوسط، حيث صانع ألعاب له رؤية شاملة للملعب، ليفكر أين عليه أن ينقلها، وبجواره لاعبون آخرون مهمته تمرير الكرة لهم ذهابًا وإيابًا، حتى يجد فرصة سانحة لصناعة هجمة، وهناك مهاجمون ينتظرون الكرة لتسجيل الهدف، وهناك منطلقون من الخلف، يبدؤون من أول الملعب، ثم يجرون

إلى نهايته آملين أن يشاركوا مباشرةً في الهدف.

وبحسب وجهة نظره، ولأن هذا مجرد مجاز في النهاية، ولأننا لا نستطيع أن نطلب من أصدقائنا الالتزام بأدوار تكتيكية معينة في ملعب الكلام، فغالبًا ما نصادق من البداية من ينقصهم فريقنا، ولأنه حتى في الألعاب الجماعية توجد هويات مختلفة للفرق وللاعبين في المراكز نفسها، فنحن نصادق من يلعبون في الكلام بالطريقة التي تتناسب معنا؛ فمن كان يحب اللعب المهاري دون اهتمام بالفعالية سيحب الأشخاص الذين يعرفون كيف يتحدثون جيدًا وبظرافة، حتى لو كان كلامهم لا يغادر موقعه الافتراضي، ومن يحب الفعالية في اللعب سيضجر من هؤلاء الذين يظلون يلعبون بالكرة دون حراك، ومن يحب روح المشاركة في اللعب، دون اهتمام بالفعالية ولا المهارة، لن يكون صديقًا أبدًا لهؤلاء الذين يظلون محتفظين بالكرة أطول فترة ممكنة، حتى لو كانوا يحرزون الهدف في النهاية.

وإذا رغبنا باعتصار مجاز الكرة حتى النهاية، فقد تفشل صداقة ما لأن اللاعب ليس في الفورمة التقليدية له، مثلًا تصطحب صديقًا مبعثرًا إلى مجموعة أصدقاء، ثم بعد أن يغادر تجد أن آراءهم فيه سلبية، فهو؛ لأنه لم يحتمل الضغط الجماهيري، لم يلعب لعبه العادي، وحاول التأقلم في خطة لا يعرفها لفريق لا يعرفه، صحيح أنك تدافع عنه قائلًا إنه ظريف وذكي ومراوغ ومهاري وميت فل وعشرة، لكنهم بعدما لعبوا معه مرة واحدة لا يريدونه ثانيةً في الفريق، وبحسب مكانتك في المجموعة، يمكن أن تقنعهم أن يعطوه فرصة ثانية لإثبات نفسه، فإما أن ينجح ذلك، وإما ترتضي أن مكانه ليس في هذا الفريق، يمكنكما اللعب أحدكما مع الآخر وديًّا، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه سيشترك رسميًّا في البطولة.

ثم هناك طبعًا أصدقاء الأناقة: الأصدقاء الذي يشتركون معك في الشيء الذي تظن -مخطئًا في الأغلب- أنك بارع فيه أكثر من اللازم، وهم بارعون فيه أكثر من اللازم، وتتمحور صداقتكم حول الاستثمار في هذا الرضى المتبادل عن النفس، ويحاول كلٌّ منكم إبعاد هذه الصداقة عن أي جوانب أخرى؛ لأنك تستمع برؤية جانبك المبهر في عين الآخر، كما يستمتعون هم بالأمر نفسه.

صحيح أن هذا النمط من الصداقة في جانب منه يمكن اتهامه بالنرجسية؛ لأنك تنتشي برؤية خيالك، لكن الأمر ليس هكذا تمامًا؛ فمن جهة أنت فعلًا ترى الجانب المبهر في الشخص الآخر، وتعترف صادقًا به، ومن جهة أنت لا تقع في حب جانبك المبهر، أنت فقط تستمتع به، فلو كنت تقع في حبه لكان أولى أن تستثمر في هذه الصداقة أكثر؛ لتظل قادرًا على رؤيته أمام عينيك دائمًا، ولكن -بشكل ما- أنت تستمتع بالإطلال على اقتراح آخر لشخصيتك، أو على الأدق، تسمتع بالإطلال على اقتراح آخر لجانب من شخصيتك، قد يتحول هذا الجانب إلى كل ما أنت عليه، ولكنك لا تريد ذلك، وهو لا يريد ذلك، ولذلك (يمكن الوقوف وهلة بعد هذه الكلمة في القراءة، حتى يعطي تكرار الكلمة الموسيقى التي كانت في بالي وأنا أكتبها) تجلسان كأنكما تشاهدان فيلمًا من بطولتكما، ولا تتحمسان لرؤية بقية جوانب الشخص الآخر، ليس لأنكما ستكرهانه، ففي الغالب أنتما تصلحان فعلًا لصداقة كاملة، ولكن لديكما ما يكفي من الأصدقاء الكاملين، وفقط تتمتعان بهذه السهرة في الأوبرا من حين إلى آخر.

٥٠

لماذا كنت أتحدث عن صداقة الأناقة؟ آه، من أجل الحديث عن فادي. أظنني قلت أن فادي كان زميلي في الكلية، واحد من الشلة الواسعة، بعيدًا عن المجموعة الضيقة لأصدقائي، لكنه موجود على أطرافها بسبب اشتراك شاكوش معه في صداقة سامح. وبامتداد زمن الكلية، بتوالي فشلنا الدراسي، أصبحت وفادي أقرب بعضنا إلى البعض؛ لأننا كنا بقايا العالم القديم. تخرَّج كل أصدقائنا، ولم يبقَ سوانا. ولأنه كان يحب الشعر العربي القديم، فدائمًا ما كنا نجد شيئًا ما لنتكلم عنه؛ إذ كنا غالبًا لا نتكلم عن عالمنا القديم، لأنه لم يتحطم، ولم ينتهِ؛ فقد تسارعت خطاويه عن خطاوينا.

كان يحفظ عشرات القصائد الكاملة، بينما كانت حصيلتي لا تتعدى معرفة عامة وسطحية مع بعض القصائد التي أحفظها لأني أحبها، وكان بيننا هذا الاتفاق الضمني: أننا لن نُعمِّق صداقتنا أكثر من ذلك. ولفترة كافية، نفَّذنا هذا الاتفاق، قبل أن يهزمنا ملل، فنبدأ في إزاحة المتاريس حول هذه الصداقة لتوسيعها.

وفي أحد الأيام وجدت فادي يدعوني للقاء صديق له قائلًا إنه متأكد أنني وهذا الشخص سنصير أصدقاء، لأننا تقريبًا نتكلم بالطريقة نفسها بالضبط. قلت له ساخرًا وقتها:

- blind date يعني؟
- لا، blind date لو كنتوا هتكونوا لوحدكم.
- ما أعتقدش عامة إن الحاجات دي ينفع تحصل بالقصد كدا.
- لا، وهتشوف.

لسعيد نظرية أخرى: الناس ينقسمون إلى قسمين، قسم يحاول جمع العالم بعضه إلى بعض، وجزء يحاول تفكيكه مرة أخرى. فادي كان من النوع الأول، وهو نوع يصعب التعايش معه؛ لأنه غالبًا ما سيورطك في جلسات بلهاء مع أشخاص تدرك بعد ثوانٍ قليلة من الجلسة أنه لا يعرفهم إلا لمامًا، لكن مغامرته تلك، حين يفترض أصالة غير موجودة في علاقاته، كثيرًا ما تقر بها الأطراف الأخرى للمغامرة، ويعتقدون بدورهم أن معرفتهم به بالفعل عميقة بالشكل الكافي، وإلا لما تعامل معهم بهذه الأريحية، أي إنها صداقة مبنية على التسامح مع سوء التفاهم الأوَّلي والمقصود.

المهم يعني، كانت خبرتي مع معارف فادي شديدة السلبية؛ فهو لسبب ما يتملكه الملل فور اجتماع العالم، ويبدأ في العبث بهاتفه، تاركًا إيانا مرتبكين من غرابة اللحظة.

في آخر مرة فعل هذا فيها، وجدتني مع مجموعة من المهتمين بالسينما. في اللحظة التي وصلوا فيها، وبعد سلام حميمي عليهم، لم ترتفع عيناه عن هاتفه، وأحاول أنا ومجموعة الشباب هذه فتح الموضوعات بعشوائية، ثم غلقها بعشوائية، في ملحمة رائعة من الفشل اللغوي. وفي اعتقادي أنه لولا هذا الفشل الفقيع، الذي تسبب فيه فادي بابتعاده المبكر أزيد من المفروض من ملعب الكلام، لكان من السهل أن أتعرف على هؤلاء الأشخاص جيدًا فعلًا؛ فعدا الاهتمامات المشتركة التي أمكنني رؤيتها لبرهة خلال هذه «العشوأة»، كانت أغلب آرائهم ذكية ورصينة ومتواضعة وتحاول الفهم، كما أنهم كان بإمكانهم ببساطة اللعب على المضمون، ولعب الكلام بطريقتهم، وانتظار أن أتدخل أنا في وقت ما، لكنهم حاولوا أن يشركوني في اللعب دون أي تدريب ولا توجيه، ولم يكُن ممكنًا التغاضي عن هذا الفشل، لكن كما قال سعيد: «مفيش حاجة دافعة في الحياة أكتر من الملل»، ولهذا عندما عرض عليَّ فادي هذا المشوار، وافقته.

وفي الموعد، كان فادي جالسًا في مواجهتي، يكركر بالشيشة، يلعب في هاتفه، وأنا أنظر إليه بعدم تصديق أنه يفعل ذلك مرة أخرى بعد كل الشتائم

التي قلتها له في المرة السابقة. لم أعرف كيف أنبهه إلى ذلك، لكن سعيد سبقني بأن ضحك، وقال لي وهو يشير إلى فادي: «حيوان والله».

كانت هذه المرة الأولى التي أراه فيها.

٥١

تعرف أن على هذا اللقاء أن ينتهي لانقطاع حبل الكلام، وغالبًا ما يكون هذا الانقطاع واضحًا ومدويًا، حتى إن الناس يشعرون بالحرج، لكنك تعرف تمامًا أن لحظة انقطاع الحبل ليست اللحظة المثالية لانتهاء اللقاء. يشبه هذا أن تنام وأنت على خصام مع حبيبتك؛ يجب أن تعطي أملًا في المستقبل، وعدًا بالتحدث، بداية خيط آخر. تتفقون ضمنيًا على تأجيل مرة، إلى المرة المقبلة، لتكون هناك مرة مقبلة، وفي العادة يكون هذا الخيط الجديد أسئلة روتينية عن العمل أو ماذا سيفعل الآخر بعد اللقاء. وبعد دقائق قليلة من هذا الحديث غير المتحمس، يخرج الاقتراح باللقاء مرة أخرى قريبًا.

الأكثر مهارة من الناس يستطيعون أن ينهوا اللقاء قبل لحظات قليلة من انقطاع حبل الكلام الأول. الأقل مهارة يفرضون على أنفسهم وعلى الآخرين صمتًا ثقيلًا. الأصدقاء يكونون أكثر وقاحة في مثل هذه الأشياء، ويهمون مباشرةً بعد انقطاع الحبل بالمغادرة، أو يجلسون يتأملون صامتين في الحياة. ولهذا قال البعض إن الأصدقاء هم من يستطيعون سماع صمت أصدقائهم دون ضجر. وكان سعيد معتادًا على كسر هذا الصمت بمعلومات عشوائية غير مكتملة ولا تذهب إلى نتيجة.

- بحب قوي عنوان:

«Everybody Talks about the Weather... We Don't».

إنت عارف هو في الأصل كان جملة في رواية لمارك توين بيقول فيها:

«Everybody talks about the weather, but no one ever does anything about it».

بعدها خدتها شركة السكك الحديدية في ألمانيا الغربية، وحوَّرتها إلى «everybody Talks about the Weather... We Don't»، قصدهم يعني إنهم بيقدموا خدمة ما بتتأثرش بالطقس، بعدها طلاب يساريين استخدموا نفس الجملة بالظبط، وحطوها على بوستر فيه المنظرين الكبار للشيوعية، وكان قصدهم إنهم مش بيتكلموا على الطقس، لإنهم بالفعل هيغيروا العالم، ومنهم خدتها الكاتبة عشان تقول تقريبًا نفس الشيء.

- إنت قريت الكتاب دا؟
- لا، العنوان بس.
- العنوان للوهلة الأولى وإنت بتقوله حسيت إن قصده إن كل الناس مهتمين بأمور فرعية، إحنا كبار أوي على الكلام فما بنتكلمش فيه، فيه برضو حبة مراهقة.
- كل حاجة لو دقّقت فيها هتلاقي فيها حبة مراهقة، لو عرَّفت المراهقة بإنها الحماسة الحمقاء.
- لإن كل حماسة حمقاء.
- كل حماسة حمقاء أكيد، لإن جواها بتفترض إنها اكتشفت شيء، وفي الطريق لاستغلال اكتشافها لشيء ما ممكن يكون واحد اكتشف حبه لواحدة، ورايح يصارحها، أو واحد اكتشف ثغرة في فكرة فلسفية، وفرحان بيها، بس إنت عارف طبعًا إن ...
- إن كل الكلام مُعاد، ولو لم يُعَد لنفد.
- بالظبط. الحماسة هنا دورها بالتحديد هو ... إيه الكلمة الصح هنا؟ آه، الحماسة هنا دورها بالتحديد إنها تسحر عين الشخص، بحيث تنسيه إن الكلام مُعاد، هيكتشف بعد كدا لوحده طبعًا، بس لحظتها هيحس إنه على وشك غزو الحقيقة.
- هو سيوران اللي كان بيقول إن أصل كل حماقة مغادرة الإنسان لغرفته؟

- مش عارف، بس أكيد قال حاجة شبه كدا، أي حد كتب كتير قال حاجة شبه كدا في مرحلة ما.
- أعتبر دا اعتراف منك إن الاقتباسات فعلًا هي أحمق محاولة لصيد الحيوان في الغابة؟
- ياخي يلعن أبو الحيوان اللي واكل دماغك دا.

يضحك.

٥٢

- عارف هتقول إيه، هحكي لك. بسنت أعرفها، كما هو واضح، من زمان جدًا، لكني أعرف برضو مازن من نفس الوقت تقريبًا، حتى وإحنا لسه صغيرين، بسنت كانت مخططة إنها تستقل أول ما تدخل الجامعة، وفي الوقت دا مازن كان بيشجعها جدًا، ما كنتش أنا ساعتها نفس الشخص مش هضحك عليك يعني، وكانت لما بتكلمني في الموضوع دا بقولّها إن دا غلط وخطر عليها، وإن أي مشكلة في البيت ممكن تتحل عادي، وإن خسارة زي دي مش حاجة سهلة، وإن الشخص بيحتاج وهو بيخوض في الحياة إنه يكون له ضهر. وهو كلام ما كانش غلط بشكل كامل، لكننا في الآخر كنا عيال، وإحنا عيال بنتخيل إن الحياة في الأغلب متشابهة بالنسبة للناس، وإن مشاكلنا وآمالنا واحدة، ما بنعرفش إلا بالتجربة والمرمطة في الدنيا إن الناس فعلًا مختلفة، وبيتعرضوا لتجارب مختلفة الصعوبة، وإنت عارف يعني أنا مش شخص فرفور ولا جاي من بيئة مثالية، فتخيلت إن الحاجة اللي هي بتحاول تفلت منها ساعتها ما تختلفش عن زن أهلي بخصوص المذاكرة وكلية الطب، والحاجات دي.
- وما سألتهاش ساعتها ليه عاوزة تعمل كدا؟

- سألتها، فكانت بتقول كلام كنت بحسبه عادي، إن معاملة الأهل وحشة وبتاع، فبقول لها الكلام الغبي بتاع ما كلنا كدا، والقرف دا، ومتهيَّألي عشان كدا ما كانتش بتحكي لي أوي.
- وفي الظروف دي كان مازن هو طوق النجاة الوحيد المتاح لها.
- مش بس طوق النجاة المثالي، هو كمان كان بيحبها فعلًا، حب ابن كلب يعني، بس حب، عارف إنت قصة «عن ماذا نتحدث حين نتحدث عن الحب»؟
- آه، الست اللي بتتخانق مع جوزها الحالي إن جوزها الأولاني صحيح كان مجنون ومؤذي بشكل مادي، وحتى كان بيهددها هو وجوزها الحالي بعد ما سابته، وفي الآخر انتحر برصاصة في بقه، عشان بيحبها، وهي كانت شايفة إن صحيح مش نفس نوع الحب اللي جوزها بيحبه لها، لكنه كان حب، وما رضيتش تسلم في النقاش بأي احتمال إن دا ما كانش الحب. إنت شايف إن بسنت ومازن كانوا كدا؟
- بشكل أو بآخر، بالنسبة ليَّا كشخص من بعيد، فهو ساعدها فعلًا. إنت عارف إن وإحنا في المدرسة اتخانق مع أبوها لما جه ياخدها من المدرسة لسبب مش فاكره. كنا خلصنا خلاص ومروحين، شدت بسنت إيدها من إيد أبوها، فأبوها قام شاددها جامد كإنه بيجرها، فمازن قام جاري من مكانه وطاير ناحية أبوها ومدي له بالشلوت، أكتر شلوت مثالي شفته في حياتي، لسه في بالي صورته وهو في الهوا طاير ناحية أبوها اللي مش مستوعب بالظبط اللي بيحصل.
- شلوت من اللي بيحصل مرة في العمر.
- بالظبط، بعد انتهاء الشلوت، وقف مازن لثانيتين كدا، مش مستوعب هو عمل إيه، بعدها شكله قال جوا نفسه علقة بعلقة، وقام نازل في أبوها ضرب، وأبوها دا، إنت شفتها، هي طويلة وضخمة أصلًا وتحسسك إنها بطلة مصارعة، أبوها بقى حيطة طويلة وضخمة وعفي كدا، قدها مرتين تلاتة، جبل حقيقي، وبعد ما أخد الشلوت،

وكام قلم طايشين، نزل في الواد ضرب، وهي تصرخ وتعيط، والواد كان يأس من عدالة الخناقة، فقعد مقضيها شتايم، وحاولت أنا وفادي، إنت عارف إن فادي كان معانا برضو في المشرحة دي، فقام ضربنا إحنا كمان، فادي يحاول يكلمه بالعقل، والتاني يتعصب أكتر، وأنا أحاول أشرح له إننا ما نعرفش إيه اللي بيحصل، فيتعصب أكتر، وبسنت تصوت وتعيط، وصاحباتها اتلموا، إنت تعرف منهم سناء متهيَّألي، عرفتك عليها مرة وإحنا لسه في الجامعة، المهم سناء قالت لبسنت تصوت على أبوها مش على الواد، عشان أبوها يهدى شوية، وعشان ما تترنِّش هي كمان علقة، عرفت دا طبعًا بعدها، فالراجل هدي فعلًا، وساب الواد شوية، فمازن طلع يجري، وفادي لإنه كان لسه بيحاول يكلم الراجل ويهديه خد هو أغلب بقية العلقة، والراجل تقريبًا زهق من عدم وجود مقاومة فسابنا، بعدها طبعًا بسنت ما جاتش المدرسة شهر، وعرفنا إن مازن قضى كام ليلة في الجبس، وبعدين رجع المدرسة كبطل حقيقي.

- تمام، بس إنت كدا ما شرحتش حاجة، ولَّا عاوز تقول إن بعد النمرة دي طلع مازن زي أبوها بالظبط؟
- لا، ما أقدرش أقول إنه زي أبوها، أنا لسه ماحكيتلكش حكاية أبوها دا، محدش زيه يعني، وأنا ما بقولش إن مازن شخص كويس، اللي بقوله إنه وقتها ما كانش شخص سيئ حقيقي، هم بقى لهم مع بعض كدا قد إيه؟ عشر سنين؟ إنت مين قبل عشر سنين؟ أنا مين قبل عشر سنين؟ كان وقتها شخص كويس حقيقي، وكنا أصحاب لفترة قبل ما حكاية تانية هقولها لك، بس يعني لو كنت وجِّهت كلامي ليها، كانت هتعيش ليلة سودا بنت كلب.
- بتحاول تقنعني يعني إن طريقة معاملتك دي كانت عشان خاطرها؟
- عارف، هتقول هو نفس منطق مازن بالظبط. طب خلاص هحكي لك الحكاية التانية.

٥٣

أذكر بالتحديد اليوم الذي لاحظت فيه أن العلاج النفسي بدأ يعطيني نتائج واضحة. كانت الساعة الخامسة والنصف، خرجت قبلها بدقائق من مقر عملي، أتمشى من العمل إلى المنزل. في الطريق نظرت إلى مقهى ما، وقلت لنفسي لماذا لا أجلس فيه قليلًا ولا أفعل أي شيء؟ ثم لاحظت أنني لم أفعل ذلك منذ ما يقرب عامًا.

عام كامل كان العالم كله بالنسبة إليَّ مكانًا عليَّ الهرب منه بسرعة، حتى أبسط الأفعال، التي تتطلب اختلاطًا بالناس، كانت تشعرني بقرب وقوع الكارثة. ثم جاء في بالي أن هذا هو العالم إذن! العالم الذي أبعِدت عنه، مُحاصَرًا في خيالاتي وأوهامي.

أخرج من المنزل بنوبة هلع، وأعود إليه بنوبة هلع، أقف أمام المرآة طويلًا لأتأكد أن وجهي يتحرك. أنا متأكد تمامًا أنني إذا بقيت مستقيظًا حتى الثانية ليلًا فإنني لن أنام مرة أخرى. أذهب على الأقل إلى ثلاثة أطباء مختلفي التخصصات في اليوم الواحد، أشعر بكهرباء خفيفة في أطراف يديَّ، يعيد إليَّ طبيب الأعصاب ثمن الكشف ويخبرني أنني سليم تمامًا، وأنه يجد حرجًا أخلاقيًّا في قبول ثمن الكشف، وينصحني أن أذهب إلى طبيب نفسي. تتفهم ماريهان ما أمر به، لكنها لا تقدر على إخفاء غضبها.

– إنت مش نفس الشخص اللي كان في بداية العلاقة.

– أنا نفس الشخص.

– أنا مش فاكرة آخر مرة ضحكت فيها في وشي إمتى.

أندهش، لكني لا أصدقها. تسأل صديقاتها عن طبيب نفسي موثوق، وتحجز لي موعدًا، وتجعل كلًّا من فادي وسعيد يدفعانني للذهاب إليه. أنا

متأكد أنني حالة ميؤوس منها، لكني متأكد أيضًا أنني -على الأقل- لست أذكى من مجموع أصدقائي، أرضخ.

أجلس في المقهى، لا تهتز قدماي، أنفاسي منضبطة، أدرك الفارق الموضوعي بين العالمين، أشعر بالغضب لأنني جعلتها تمر بكل ذلك، لأنني جعلتهم كلهم يمرون بكل ذلك. أبعث إليها رسالة أنني أنتظرها تحت منزلها، تنزل إليّ. مرت أربعة أشهر على انفصالنا. نتمشى في مربعات حول منزلها، أضحك، تبكي، أغضب.

٥٤

دون أن تستشير أي أحد، ودون حتى أن تجمعها بها أي صداقة حقيقية، أخبرت نسمة بسنت أنها في الطريق إليها. بدأ الأمر حين اتصلت بسنت بسعيد لتخبره أنها لا تعرف ماذا تفعل، دون أن تشرح تفعل ماذا بشأن ماذا. أخبرها أن تلتقيه في أي مكان تريده، واتفقا على الموعد. كانت نسمة بجواره، استمعت لقصتها كاملةً منه بعد الاتصال، ثم اتصلت بها، وأخبرتها أنها في الطريق إليها، وحين وصلت كانت بسنت منهارة تمامًا. حزمت نسمة ملابس بسنت كيفما اتفق في حقيبة السفر التي تصادف وجودها في سيارتها.

أخذ مازن، الذي كان لا يزال في المنزل، يلقي بالأشياء على الحائط ونسمة ترد عليه بالشتائم، محاولة إخفاء ارتعاش يديها وصوتها. تمسك نسمة بيد بسنت وتشدها خارج البيت، يلقي مازن بعدة أشياء عليهما، يهدد نسمة لترد عليه بشتائم بصوت غير مرتعش، تأخذها إلى بيت عائلتها، وفي المساء، تقول لنا نسمة: «أنا نزلت أقابلكم بعد ما سبتها نايمة، ونوران وماما في البيت».

ثم تنفجر باكية بشكل مفاجئ تمامًا، كأنها الآن فقط يمكنها أن تنهار بعد هذا اليوم. أرتبك وأتحجج بالذهاب إلى الحمام، أتأخر قدر ما يمكنني التأخر، ثم أعود لأجدها قد هدأت. عيناها ثابتتان، توجد دمعة على الجانب الأيسر من وجهها، أعلى من فمها قليلًا، لكنها لا تمسحها، وأظن، لثانية، أنني أرى ما يراه فيها سعيد.

٥٥

- إنت كدا أول مرة تيجي من سنة، مش كدا؟
- من عشر شهور وأسبوعين.
- عملت إيه في الفترة دي؟
- تمام.
- نومك عامل إيه؟
- ما بنامش.
- من إمتى؟
- بنام قليل جدًّا، تلات ساعات مثلًا، ودا من حوالي شهر، من ٢٦ يوم بالظبط.
- بتاخد الدوا؟
- لا.
- ليه؟
- زهقت منه.
- ينفع أعرف زهقت ليه؟
- بكون غبي لما بنتظم عليه.
- بمعنى؟
- بمعنى إني بحس إن مشاعري دي جزء مني، جزء من ذكائي، وخبرتي في التعامل في العالم، الدوا بيخليني كويس، لكني مش حاسس بحاجة، فما بعرفش أقرر ولا أختار أي حاجة.
- اديني مثال.

- يعني، أنا خرجت من فترة كدا مع بنت، وكانت القعدة كويسة، والبنت عاجباني، لكني مش قادر أعرف هي عاجباني ولا لأ.
- إزاي مش قادر تعرف؟
- ما عنديش مشاعر، مفيش حاجة خالص.
- بس إنت قلت لي قبل كدا إنك برضو ما بتعرفش تحدد مشاعرك، عشان كل أفكارك بتكون مركزة على الخطر اللي حواليك.
- صحيح.
- وإنت شايف إيه الفرق في الحالتين؟
- في الحالة العادية بكون مركز على الخطر اللي حواليا، لكني عارف مشاعري، مش مديها الأولوية لكني عارفها، دلوقتي أنا مش عارف مشاعري من الأصل.
- وعامل إيه في الشغل؟
- تمام.
- وأهلك عاملين إيه؟
- تمام.
- فيه حاجة معينة حسيت إنها بتسبب لك قلق في الفترة الأخيرة؟
- أيوا.
- غير المشاعر يعني؟
- أيوا.
- ينفع تحكيها؟
- لأ.
- ما ينفعش ولا مش حابب تحكيها؟
- الاتنين.
- عملت أي حاجة زي المرة اللي فاتت؟

– أيوا.

تميل رأسها، وتزم شفتيها، أغضب.

٥٦

يرى سعيد أن اللغة مربكة؛ لأنها تقوم بالإيضاح والتشفير في الوقت نفسه، ولذلك، حتى تسمع فعلًا شخصًا ما، يجب أن تنصت له لفترة طويلة جدًّا، حتى تفهم ما كان يقصده في بداية حديثه، ولتصبح عندك فكرة ولو ضئيلة عن أسلوبه في تشفير ما يريد قوله، التشفير الذي يحدث أحيانًا دون أن يلحظ المُشفِّر نفسه. أنتبه حديثًا إلى ذلك مثلًا حين أتحدث مع أصدقاء جدد، ولمرات كثيرة عن سعيد، ثم أجدهم بعد تلك اللقاءات الطويلة يسألونني فجأة عن أحوال سعيد هذا الذي لا أكف عن الحديث عنه، حينها فقط أنتبه أنني أتحدث عنه دومًا بصيغة الحاضر، كأنه كان يناقشني في الفكرة التي أتحدث عنها بالأمس فقط، وأستعجب كيف أُشفِّر وفاة أقرب أصدقائي دون حتى أن أحس بذلك.

كنت أقول له إنه صحيح أن اللغة بالفعل تُوضِّح وتُشفِّر، لكن ليس لأننا نُشفِّر حديثنا عمدًا بالضرورة، إنها تُوضِّح وتُشفِّر رغمًا عنا، ولذلك يستوي موقفنا من تشفير الكلام مع موقف السامع، نحن الاثنان أمام شفرة، غير مفهومة، الشفرة التي ننطق بها ليست شيئًا مشاعًا، صحيح، وهي إلى حد ما شفرتنا نحن، ولكننا نحتاج نحن أنفسنا إلى وقت كافٍ للتحدث حتى نعلم بالضبط عن ماذا نتحدث، نحن نكتشف ما نود قوله حين نتكلم أكثر، حين نتمكن تدريجيًّا من فك شفرات مشاعرنا، وربما يصادف أن نلتقي بمن يفك شفرتنا قبل أن نفكها نحن؛ فاللغة تكشف أحيانًا ما لا نود كشفه.

دعني أوضح هنا أنني لا أقول إن كلماتنا هي نتيجة خالصة لسياقها (لأن السياق نفسه شفرة بدوره، ضمن شفرات متعددة)، ولكن أقول إنها تُعبِّر عنا بالضبط كما تُعبِّر أحلامنا، بتعبير آخر: نحن لا نستيقظ أبدًا من الحلم.

٥٧

في كتابه «كيف تسقط دون أن تتحطم»، يقول الكاتب الأمريكي تشارلي باتريك إن الصداقة دومًا أشبه بالحلم المستحيل لولا أنه يتحقق فعلًا؛ فنحن متمحورون على ذواتنا، نختار ما هو صالح لبقائنا، كما أننا لم نعُد سجناء بيئتنا الأوَّلية، نتحرك في الحياة طبقيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا ومكانيًّا، وهنا تكون الصداقة الحقيقية وهمًا، نراوغه بافتراض ضمني، نعلم خطأه، أنها مستمرة إلى الأبد، حيث يعني الأبد هنا انتفاء الحاجة إليها، أو تهدم أسسها، وهي أمور تحدث أسرع مما يمكننا دائمًا أن نتوقع.

وبعد أن يُفنِّد تمامًا إمكان وجود علاقة أصيلة بين شخصين في الفصل الأول، يُعنون الفصل الثاني: «لكنها تحدث فعلًا». في حياته، كان باتريك طفلًا خجولًا ومنعزلًا، ورغم ذلك استطاع مصادقة طفل آخر عشر سنوات كاملة، قبل أن يُلقي هذا الطفل، الذي أصبح شابًّا، بنفسه من ارتفاع ثمان طوابق، وبالنسبة إليه، كانت الصداقة حرفيًّا قد ماتت، ولا وسيلة لبناء صداقات جديدة. كان يسقط، ويعلم أنه يسقط، ومستسلم للأمر، لكنه لم يتحطم. اثنان من زملائه في العمل يدعوانه دومًا للقائهما، يتحدثان معه أغلب الوقت، يسافران معه إلى البحر، وبالوقت أدرك أنهما كانا يسقطان، ومثَّل لهما -لخطأ في تأويلهما لهدوئه- شيئًا ثابتًا يمكن التشبث به، وأحس أنه يخدعهما بشكل ما، فحكى لهما قصته، فلم يغير ذلك شيئًا.

وحين يتأمل باتريك ذلك، من علو ثلاثين عامًا، كان ثلاثتهم قد قطعوا طرقًا مختلفة في الحياة، ومع ذلك، ظلوا دائمًا على اتصال، خصوصًا في الأوقات الصعبة. يقول إن الأمر يشبه المعجزة؛ نظريًّا كان على ثلاثتهم أن يتحطموا، تحطمًا حتميًّا ليس بوسع الصداقة نفسها مقاومته. يحاول تفسير الأمر بأنه ربما الحظ، أن كلًّا منهم كان على وشك التحطم في لحظة يثبت فيها الآخران، ثم يتبادلون الأدوار، وهذا الثبات نفسه كان أقرب إلى الواجب، وليس ثباتًا

حقيقيًا، لكنه لا يملك نصيحة كيف يمكن للمرء أن يسعى نحو صداقة كتلك. وفي نهاية الكتاب، يقول «كيف تسقط دون أن تتحطم؟ لا أعلم، لكن ذلك يحدث فعلًا».

٥٨

بعد سنوات طويلة من لقائنا الأول، قلت لسعيد إننا لا نتحدث بعضنا مثل بعض، لكني أعرف كيف اختلط الأمر على فادي. يميل كلانا إلى التجريد، ما يعني أننا ننظر إلى الحياة كأنماط علينا فهمها وتوقُّعها، وكلما اتسعت أعيننا، كان علينا الغرق في التجريد أكثر للإحاطة بهذا الذي ينفلت، لكننا نختلف في أمر واضح؛ يتحدث سعيد غالبًا محاولًا تحقيق أكثر دقة ممكنة، حتى لو لم يفهم أحد ما يقوله، بينما أميل أنا إلى الوضوح وليس الدقة، ولذلك، بينما ينحو حديثه دومًا إلى الاستطراد من أجل سد أي ثغرات ممكنة، ويغرق دائمًا في معادلات رياضية يخترعها ثم يشعر أن عليه إثبات هذه المعادلات بإثبات منطقية طريقته في احتساب كل عامل من عواملها، أنحو أنا إلى الاستطراد من أجل التأكد أن كلامي، الذي أعلم جيدًا أنه للوهلة الأولى يبدو مُعقَّدًا وغير مفهوم، قد أصبح واضحًا لي وللطرف الآخر. سعيد يستطرد ليُثبت، وأنا أستطرد لأتأكد أني أفهم.

ثم يوجد اختلاف آخر في طريقة الحكي. يحكي سعيد الحكاية دائمًا مُكوَّنة من عدة حكايات أصغر، ولب الحكاية يبدأ من الحكاية الأصغر حتى يصبح شجرة في آخر حكاية. صحيح يبدو أن كلًّا منا لا يحكي بشكل خطِّي، لكني أختلف عنه أن حكاياتي الأصغر لا تحمل أي اتجاهات في ذاتها، ولا يمكن رؤية الشجرة فيها (لن أستعمل هذه المرة مجاز الحيوان في الغابة) إلا بعد انتهاء آخر حكاية منها.

ويمكنني أن أتفلسف وأقول إن هذا الاختلاف يأتي من اختلاف أكثر

جوهرية؛ فبينما يعُدُّ سعيد أن هناك انطلاقًا للأحداث، أرى أنه ليس هناك دائمًا أي بداية ولا نهاية لأي قصة، ولا حتى كنز في الرحلة، آثار متعرجة سكرى في صحراء في يوم عاصف، والشجرة هي أمل الحكاية، لكنها مجرد افتراض نظري، هي ليست حتى سرابًا نلاحقه، الشجرة هي نحن، والحكي دلالتها الوحيدة، بينما الشجرة بالنسبة إليه هي نحن، لكنه أكيد من وجودها، والحكي ليس دلالتها، بل احتفالنا اللغوي بوجودها.

الفصل الرابع

«أنا يا سيدي ... هذا الأسبوع ... ابني مات»

٥٩

- هقول لك الأول على سبب الخناقة اللي بسنت أنقذتني فيها: في المدرسة كنت بحب بنت اسمها منار، منار دي أبوها كان فاتح مكتبة قريب من المدرسة.
- وأبوها عرف إنك بتكلمها فقام استنَّاك تعدي من قدام المحل وضربك. إيه يا عم المدرسة اللي كل العيال بتنضرب فيها دي؟
- يا عم سيبني أحكي.
- احكي.
- أبوها دا كان راجل صعيدي، ومتخانق مع ولاد عمه على مين صاحب المكتبة.
- فجُم يضربوه، فإنت قلت تعمل فيها بطل قدام البت، ودخلت الخناقة.
- يا عم أرجوك سيبني أكمل.
- كمِّل.
- أنا رحت قلت لمنار دي إني بحبها، وكتبت لها شعر، وأبوها عرف وجه المدرسة وهزقني، وراح لأهلي يهزقهم، وإنتو ما تعرفوش تربوا، وخدته الحماسة أكتر فقال لهم إنتو أصلًا ممكن تتربوا، فأبويا قال له الواد ما غلطش في حاجة، وما تتشطرش على الأصغر منك، عاوز تتخانق تعالى اتخانق معايا.
- راح يهزق الشخص الغلط طبعًا.
- بالظبط، أبويا مش عاوز سبب أصلًا عشان يتخانق مع العالم، وحسيت إنه فرح أوي إن جاله سبب، فقعد يسألني عن أبوها دا، وعرف موضوع الخناقة، فقرر يروح لولاد عم أبوها، ويمسك هو

القضية بتاعتهم، وما تقاطعنيش والنبي وتقول لي فأبوها عرف وقام ضربك، خليني أكمل.

- أنا نطقت يا عم؟ كمِّل.

- ولاد عمه دول إيه بقى، كان عندهم محلات وقهاوي حوالين نفس المكان، فأبوها دا كان تقريبًا مُحاصَر من كل الجهات، مكتبة صغيرة في مواجهة جيش من القهاوي وأكشاك السجاير. المهم أبويا راح لواحد فيهم، فالراجل سمعه، وبعدين قال له وإنت فاكر بروح أمك إن ملعوب شاكر، شاكر دا اللي هو أبو منار، قال له وإنت فاكر بروح أمك إن ملعوب شاكر هيخيل عليا يابن ميتين الكلب؟

- اديله.

- فأبويا طبعًا مسك كرسي من القهوة وحدفه على راس الراجل، وهيصة بقى، وأبو منار، جه يحوش، بعدين تحمس هو كمان، فقعد يضرب في ولاد عمه، وصبيان القهاوي بتاعتهم، دا كله حصل إمتى بقى عشان العالم دا مكان درامي؟

- وقت خروجكم من المدرسة؟

- بالظبط، منار قعدت تصرخ وبتاع، وأنا شايف أبويا بينضرب وبتاع، فرحت أتخانق، ومازن جه يتخانق معايا، هو وشوية عيال تانية ما تعرفهاش، ميدو وبطاطس وسجق، خليني أحكي لك بعدها على موضوع سجق وبطاطس دا.

- كمِّل يا عم.

- ما خلاص، دخلت أنا والعيال نحوش، وأبويا راسه وألف جزمة إنه مش هيمشي غير بعد ما يحرق كل المحلات بتاعتهم، واتنين مكتفينه بيهدوه، وأبو منار راح المحل بتاعه وراجع يجري بساطور، واتنين من ولاد عمه رافعين مطاوي، والباقي ماسكين حديد وخشب، ومنار والبنات عاملين موسيقى تصويرية، ومازن قالع قميصه وواقف فوق كرسي وماسك حديدة كبيرة كدا معتبرها سيف، وأنا

مزنوق في الحيطة من اتنين بيعجنوا فيَّا، أشوف من بعيد بقى مين؟

- بسنت طبعًا.
- بسنت طبعًا.

ويضحك.

٦٠

أنتبه إلى أن خطواتي أسرع وأطول من خطوات هدير، أتباطأ وأحافظ على الإيقاع.

- بتعملي إيه في حياتك؟
- بألف خير والله، إنت عامل إيه؟
- زي الفل، في روتيني المعتاد.
- مفيش أجمل من الروتين.

نسير قدرًا كافيًا لطرح سؤال آخر.

- وعاملة إيه في حياتك العاطفية؟
- بألف خير برضو، والله، عايشة في أجمل قصة حب فاشلة في العالم.
- بداية عظيمة لقصة، بس إنتي كدا بترفعي سقف طموحاتي كمستمع.
- لا، أوعدك إن دي أجمل قصة حب فاشلة هتسمعها.
- أتمنى ذلك، ما أتمناش إنها تكون فاشلة طبعًا، بس كمحض مستمع أتمنى تقدري توفي بوعدك دا.
- بص، أنا ومروان بقى لنا سوا خمس سنين، من آخر سنة في الكلية وإحنا مع بعض، من آخر يوم في آخر سنة في الكلية، جه بعد الامتحان، وقال لي إنه بقى له سنة بيفكر يكلمني إزاي، وبما إن كدا

الوقت بيخلص فهو عاوز يقول لي إنه معجب بيا.

- طيب ما فيه سوشيال ميديا عادي.
- آه، هو بيحب الدراما شوية. المهم اتقابلنا مرة في التانية في التالتة، عجبني هو كمان، ولما بدأنا فعلًا نحب بعض، راح هو اشتغل في محافظة بعيدة، وهو أصلًا من محافظة تانية بعيدة، ففين وفين على ما نشوف بعض، معايا؟
- معاكي.
- المهم، قعد سنة كدا، اتقابلنا خمس ست مرات فيها، بنتكلم على طول طبعًا، بس ما نتقابلش، حتى هو عشان الظروف دي قال لي ما تيجي نتجوز وخلاص؟ قلت له لا أنا لما هتجوز، مش هيكون عرض الجواز بتاعي اللي هو: ما تيجي نتجوز وخلاص.
- مفهوم.
- بعدها بسنة نقل الشغل وبقى هنا، وقعدنا شهر بنتقابل كل يوم تقريبًا، لحد إيه بقى؟
- لحد ما جاله فرصة شغل برضو مضطر يقبل بيها.
- لأ، جالي أنا منحة دراسة برا، قلت لك إني معايا ماستر في التنمية وكدا؟
- أيوا.
- فهو يعمل إيه بقى؟
- يعرض عليكي الجواز تاني؟
- برافو عليك، بس المرة دي بقى عمل حركات وورد وكلام عاطفي وبتاع، بس قلت له خلينا نستنى لحد ما أرجع تاني.
- ورجعتي كان هو بقى للصدفة جاله فرصة عمل برا ومضطر يسافر.
- هاهاها، حصل. قبل ما يسافر قال لي طب أقابل أبوكي طيب، فجه هو وأمه وأبوه يقابلوا بابا، فيطلع إيه بقى؟ تخيل.

- أبوه وأبوكي كانوا زملاء في الكلية مثلًا؟
- لأ، أبويا كان خاطب مامته قبل ما يتجوز ماما، ما كانش قايل لنا خالص، ولا أمه كانت قايلة لهم.
- وهي ما خدتش بالها من الاسم.
- محدش يعرف بقى، محدش سألها. بس وهم قاعدين في وقار، وبيشربوا الشاي سوا، أبويا قام قايل لها: إنتي مش فاكراني يا سناء؟ دا قدام ماما وباباه، وقام قايل لهم إنهم كانوا مخطوبين زمان وهم في الكلية، فالقعدة اتوترت وقعدوا يحكوا قصص، ويحاولوا يغلوشوا على بعض، لحد ما هو وأهله مشيوا، من غير ما يتكلموا في موضوع الجواز.
- برافو، وكدا فشل المشروع.
- لا، بتتكلم في إيه؟ الكلام دا من تلات سنين أصلًا، ماما طبعًا نكدت على بابا إزاي وإزاي ما تعرفش ويعرَّضها للموقف المحرج دا، وإزاي ما مسكش لسانه وخلاص، وهو بيقول إنه كان بيهزر وبتاع، المهم اتخانقوا شوية، تحب نقعد في حتة لو تعبت من المشي؟
- ما تعبتش، لكن لو حابة تقعدي نقعد.
- آه ممكن نقعد في مكان قريب كدا أنا عارفاه.
- تمام.
- بس اصبر على رزقك بقى، لإن أصلًا كل دا والقصة لسه ما بدأتش، لإن ...
- أبوكي طلع بيحب مامته لسه؟
- يا ريت.

٦١

هل هناك مرحلة معينة من الصداقة يمكنك أن تجزم فيها أنك تعرف الشخص الآخر فعلًا؟ أقصد إن كان الحديث مُشفَّرًا في اللغة، ومُشفَّرًا في لغة الجسد، ومُشفَّرًا حتى في قرارتنا الحياتية، متى يمكنك أن تقول عن شخص ما إنك تعرفه إنه لا يمكن أبدًا أن يفعل كذا؟

سعيد يرى أنه يمكنك أن تعرف الشخص الآخر فعلًا دون حتى أن تتحدث معه؛ فالناس أنماط، صحيح أنها كثيرة ومتشابكة ومختلفة في درجتها، لكن الناس، بمن فيهم نحن، يبقون أنماطًا، وإذا فهمت نمطًا معينًا يمكنك بنسبة ٨٥٪ أن تصيب في توقعك لردود أفعاله، ولهذا كان يحب كثيرًا أن يستبق الناس في حديثهم ليخبرهم بالمراحل الفكرية التي مروا بها، ومتى قرروا بالضبط تغيير طريقة حياتهم من نمط إلى آخر؛ لأن هذا التغيير نفسه نمط. طبعًا تقول الآن أنني سأختلف معه؛ لأن هذا هو النمط الذي رأيته مني حتى الآن، وهذا للأسف صحيح، فأنا أختلف مع سعيد، ليس في أن الناس أنماط، ولكن في أن هذه الأنماط يمكن توقعها؛ لأننا أصلًا لا نفهم أنفسنا كفايةً، ما يحدث أننا نميل غالبًا إلى مصادقة هؤلاء، ليس الذين نعرفهم تمامًا، بل من يكونون بالكرم الكافي لأن يخوضوا معنا هذه المحاولة. لكن، في ما عدا هذا الكرم المُتبادَل والمغامرة الثنائية، لا يوجد أي وعد حقيقي بالمعرفة، ولا وعد حقيقي بالنجاح، وهذا ليس أمرًا سيئًا بالضرورة؛ فليس هناك من أجمل من الكرم.

٦٢

قبل أسبوع واحد من سفر نسمة، كانت خطوبتها هي سعيد. يرقص كلاهما بكل طاقته. لطالما حسدته على قدرته على الرقص، هو أفشل راقص أعرفه، لكنه لا يهتم بتاتًا، يحرك جسده كيفما جاء على باله دون التزام بالإيقاع.

فاجأني ذلك في البداية؛ لأنني تصورت أن شخصًا يحب وضع الأشياء في مكانها المضبوط تمامًا، بحيث تكون قابلة للتوقع، إما سيكون راقصًا مثاليًا، وإما سينسحب من اللعبة لأنه لن يجيدها. حين قلت له ذلك، قال إن الرقص في النهاية لعبة تقوم على الانسياب وليس الانضباط، ولا يمكنك أن تكون فاشلًا في الرقص، تفشل فقط حين ترفض أن تشارك في اللعبة، وكنت دومًا أرفض أن أشارك في اللعبة.

تنشغل نسمة مع كل تفاصيل الاحتفال، تتحدث مع والديها، ومع نوران، ثم تعود إلى سعيد، ثم تتحدث بشكل قصير محسوب مع كل شخص موجود في الخطوبة، ثم تتحدث مع القائمين على الطعام، ثم تُسِرُّ شيئًا للدي جي، وتطلب شيئًا آخر من مسؤولي القاعة، ثم تعود إلى حلبة الرقص وترقص مع سعيد، يتحرك جسدها بتناغم مع الإيقاع بينما يُشلِّت بقدميه ويُشوِّح بيديه في كل اتجاه.

سعيد سعيد تمامًا.

تدخل نوران إلى حلبة الرقص مع والدها، ويرقصان بتناغم لافت، ثم تنضم إليهم طنط سميرة والدة نسمة ونوران، ويرقص أربعتهم كما لو كانوا تدربوا على ذلك طول عمرهم. يعلو صوت والد سعيد وهو يتعارك مع المسؤولين عن الطعام، ثم يتعارك مع الدي جي، ثم يتعارك معي لأني لا أرقص، يمسكني بيدي بقوة، ويسحبني سحبًا إلى الحلبة. كان غاضبًا فعلًا كأني بجلوسي ساكنًا أُهين صداقتي أنا وسعيد، حين وصلنا للحلبة، نادى سهاد، ابنته الصغيرة،

قائلًا لها: «علِّمي التمثال دا إزاي يرقص».

يرقص هو مع ابنته الكبرى سمر. الأربعة يُشلِّتون في الهواء، وكذلك تفعل سهاد، التي جعلتني أضحك وهي تعلمني الرقص، بينما لا يمكن توقع أي حركة تقوم بها، وتتحرك بانفصال تام عن الإيقاع، تضرب قدمي دون قصد في إحدى حركات قدميها العشوائية، لا تعتذر، بل تضرب قدمي الأخرى وهي تضحك. تلحظها نوران، فترقص معها. مدرستان مختلفتان في فهم الرقص، يرقصان معًا، تضحك نوران بأعلى صوتها، تمسك بيدي سهاد وتُطوِّح بها في الهواء دائريًا، تضحك سهاد، أحاول إيقاف نوران لخوفي من أن تفلتها، لكنها تبتسم فقط، ولا تسمعني. يضربني الهلع فجأة، وتتخدَّر قدماي، أغادر الحلبة مستغلًا انشغال الجميع بنوران وسهاد. أقف أمام باب القاعة، أحاول التقاط أنفاسي، أغمض عينيَّ، أتمنى أن أنام الآن، أجلس على الأرض، مستندًا إلى قدمي اليسري، ووجهي على ركبتي اليمنى المرتفعة عن الأرض، يد تحط على كتفي بخفة، أنظر، تقول نسمة: «ما تقلقش هتكون كويس».

يظهر سعيد خلفها مباشرة، يشعل سيجارة، يجلس على الأرض: «قلت لك قبل كدا نكتة الأرنب ومدرسة الفرنساوي، مش كدا؟»

٦٣

أعتقد أننا كنا نتحدث عن فادي حين قال عنه سعيد إنه يمكنه أن يشكو من أي شيء إلا الوحدة؛ فلديه أصدقاء مُقرَّبون يستطيع أن يحكي لهم كل شيء، بما فيها التفاصيل الحميمية لمشكلاته مع زوجته.

كان فادي على وشك تطليق أماني بعد أربعة أعوام من الزواج، لكنه لم يكُن متأكدًا من قراره؛ لأن أماني كانت دومًا سنده في الحياة، تفعل له كل شيء، لكنه لم يعُد منجذبًا إليها، ويظن أن الأمر مماثل من جهتها. اقترحت عليه أن يذهب إلى طبيب متخصص لحل الأمر، لكنه رفض، فاقترحت أن

يذهبا معًا إلى طبيب نفسي متخصص في الاستشارات الزوجية. وبعد نحو خمسة أشهر من الانتظام، التقانا فادي، وحكى وهو يبكي أنه يعتقد أنه لم يعُد هناك حل سوى الطلاق. وفي خضم بكائه قال إنه لم يشعر بالوحدة قط في حياته مثلما يشعر بها الآن.

أماني شخص مثالي تمامًا، ذكية وناجحة واجتماعية وظريفة وجميلة، ولسبب ما لا أعرفه، مثلما لا نعرف أبدًا من أين يأتي أي حب، تحبه جدًّا، حتى إنها قالت له إنه لا مشكلة أن يكملا زواجهما دون حميمية، وربما يعالج الزمن الأزمة. لكنها بالطبع لم تعرف ما كنا نعرفه؛ ففي أحد سفرياته إلى الخارج، ولمدة أسبوع كامل، عاش فادي مع زميلة له في البيت نفسه، ويقول أنهما وقعا في الحب من النظرة الأولى. أصر على وجود الحب؛ ليحتمي به من عاصفة الغضب المُتوقَّعة من سعيد ومني. لكن، ومع أن هذا الادعاء لم يحمِه من العاصفة، ظل يتحدث معها كل يوم، مخبرًا إيانا أنها أعطته ما لم تعطِه أماني قط؛ حس المغامرة والتجريب والانطلاق في الحياة. صحيح أن أماني هي من ساعدته في عمله وفي علاقته مع أهله، لكن علاقته بها كانت أقرب إلى صداقة منها إلى علاقة حب.

- يابني ما تقولش كلام يعصبني بقى، وترجع تشتكي.
- طيب إنت لو حابب تكمل معاها قول لأماني على طول، وانفصلوا.
- ما أنا بحب أماني برضو.
- لا كدا بتستغلها.
- مش بستغلها، أنا عاوز الاتنين.
- يابني إنت ما بتنامش مع مراتك، أرجوك بقى ما تجنِّنش أهلي.

ينهنه، ويعلو صوت بكائه. أعتذر له عن عصبيتي، لكني أصر على موقفي؛ ضرورة أن يواجه أماني بما حدث. يقول سعيد أن عليه طبعًا أن يخبرها في وقت ما، ولكن عليه أولًا أن يختار نهائيًّا إلى من ينحاز. يبكى فادي بصوت أعلى، ويقول إنه يشعر أنه على وشك خسارة كلتيهما معًا. يرد سعيد أن هذا

احتمال طبعًا، ولكن ما يمكنه فعله الآن أن يقرر أي جانب سيحاول حمايته من الانهيار، حتى لو انهار بعدها. يبكي، وأجلس أنا وسعيد غير مدركين ماذا علينا بالضبط أن نفعل.

أسرح ونحن نتكلم في الوحدة، كيف يمكننا أن نكون محاطين بأحباء وأصدقاء حقيقيين ونظل -رغم كل ذلك- نعاني أشد درجات الوحدة؟ وبينما نحن جالسون هكذا، أجد رسالة على هاتفي. أماني تخبرني أنها تود لقائي في أسرع وقت ممكن.

٦٤

تكمل هدير حكايتها:

- لا يا سيدي، ما طلعش لسه بيحب مامتي، بيحب خالتي، أو على الأقل دا اللي مروان استنتجه لما أبوه قال له: «عاوز أتكلم معاك في موضوع»، وقال له إنه صحيح إنه هو وماما كانوا مخطوبين زمان، بس هو حس بالوقت إن مشاعره بتتحرك أكتر ناحية أختها، اللي هي خالتي. مروان قال له وأنا مالي يا عم، بتحكي لي أنا ليه، ما تحكي لأصحابك، هو إنت فاكرني هقول لك إيه؟
- وخالتك دي متجوزة؟
- مطلقة، وعندها تلات عيال شُحُطة، اللي في الجامعة، واللي خلص، واللي مسافر، هو ما قالُوش إنه لسه بيحب خالتي، هو حكى له إنها سبب إنه فركش الخطوبة، بس مروان بيقول حس إنه لسه بيحبها.
- طيب ومامتك؟
- ماما قالت لبابا إنه، اللي هو أبو مروان، هو اللي فشكل الخطوبة صحيح، وإنه راجل واطي، وإنها ما تقبلش إن الراجل دا يخش حياتها تاني بأي شكل.

- وعملتوا إيه؟
- ما لسه بقى، لما قلت لمروان إن ماما رافضة عشان كدا، قام المحروس أبوه قام باعت رسالة طويلة عريضة، بيعتذر فيها، وبيقول لها إنه كان عيل وبتاع، وإن ما تحاسبش مروان على ذنب أبوه، فإيه اللى يحصل؟
- أبوكي يشوف الرسالة.
- لا ما شافهاش، ماما اللي قالت له اللي فيها، وأبويا اتعصَّب إزاي راجل غريب يبعت لماما كلام زي دا، فبقى رافض هو الجواز، وقال إن شخص معندوش تربية ولا أخلاق ولا احترام للناس زي أبو مروان، ابنه هيطلع شبهه.
- وبعدين؟
- قلنا نأجل الموضوع بقى شوية لحد ما يهدوا، بس هنا بقى ييجي دور خالتو سوسن.
- طلعت لسه بتحبه؟
- لا هي ما كانتش بتحبه أصلًا، هو ما كانش قال لها أي حاجة زمان، بس زي ما تقول كدا هي حبت اللخبطة دي، فاتصلت بأبو مروان تقنعه يكلم بابايا، يعتذر له مباشرة. أبوه اتصل بيه يعتذر له، فبابا قال ماشي إنه موافق على الخطوبة، فاللي يحصل إن ماما تتعصب عشان حست إنه بيعاملها كعيلة صغيرة، وترفض وتقول لبابا إن لو الخطوبة دي حصلت هتسيب له البيت وتمشي، دا في ناحية عيلتي.
- وفي ناحية عيلته، أمه كمان اتخانقت؟
- أيوا، ما هي طنط سوسن لما كلمته وهو اعتذر، قالت تكمل مهمتها وتكلم أمه تهديها وبتاع، هي أصلًا الست ما كانتش مهتمة، وشايفة إن دا كله كان لعب عيال يعني، لحد ما طنط سوسن قالت لها إنه جوزها راجل محترم ودوغري ومعملش حاجة غلط، وحتى اعتذر

لأبويا وأمي.

– ما كانتش تعرف طبعًا إنه اعتذر لأمك.

– لا طبعًا، فقررت هي كمان تسيب البيت وتمشي.

تغرق في الضحك. أسألها إن كانت هذه خاتمة الحكاية، تضحك أكثر حتى يكاد نفسها ينقطع وتقول لي: «خاتمة حكاية إيه بس؟ لسه ستو سماح ما طلعتش المسرح».

أنت تعرف طبعًا تلك اللحظة التي يأتيك الإدراك فيها أن قصتك لن تكون بتلك المتعة وأنت تحكيها لأصدقائك، بعدما وعدتهم بقصة عجيبة، إدراك أن منتصف القصة هو ذروتها، دون نهاية، ودون بانش لاين رائع يفجر الضحك أو الدموع.

يختلف الناس في التعامل مع هذه اللحظة؛ البعض يعتبرها إذنًا للخيال بالتدخل، الخيال المُرتجِل الشجاع، الذي يقود سيارة في عاصفة جليدية، لكنه يكمل طريقه؛ والبعض يتراجع مقررًا أنه نسي بقية الحكاية، متحملًا نظرات الإحباط لأنها مليئة بالحسرة على الجميل الذي لم يكتمل، وليس على الجميل الذي استحال مسخًا فجأة. البعض يكمل طريقه في الحكاية كبطل تراجيدي يدرك مآل أفعاله ولا يرغب في تفاديها، ويتقبل رصاصات الصمت بعد نهاية الحكاية كأي بطل. هو هنا شهيد حكايته، وهي شهيدة أيضًا؛ فهو يتعلم الدرس أن تلك القصة ليست مناسبة للحكي، مهما كانت قيمتها عنده. البعض، في السياق المناسب للصداقة، يعيدها مرة تلو أخرى؛ فعلى الأصدقاء في النهاية احتمال التكرار، كرامةً لصديقهم ورغبته غير المفهومة في قص الحكاية نفسها مرة أخرى، احتمال يأتي من أنك تفهم جيدًا أنه يرغب في أن يقول شيئًا ما من خلالها، شيئًا لا يدركه هو تمامًا، وبالطبع لا تدركه

أنت، لكن لا يمكنك منعه من المحاولة، ومن يدري؛ ربما في أحد تكراراتها يأتيه الإلهام ويعرف لماذا يحكيها. وفي انتظار ذلك، لا سبيل أمامك كصديق سوى الاهتمام الصادق، وأن تحاول معرفة شفرة هذه القصة، هو لا يرجو إلا مساعدتك إياه في فك هذه الشفرة، لا أن تفكها فعلًا، فقط حاوِل بجد.

٦٦

يقول سعيد إن علامة الوحدة هي الحكايات المفاجئة الشديدة الحميمية، التي تجد من يبُخُّها في وجهك دون إنذار. صداقة مُحتمَلة تقفز من الدور التاسع لتصطدم بك، تلحظها، تجري حسابات عقلية متسرعة: ماذا سيحدث إن ثبتت في مكانك وتلقفتها؟ هل تنجوان معًا، أم تتحطمان معًا؟ ودون أن تصل إلى قرار، تجد نفسك تبتعد في اللحظة الأخيرة، لتتحطم هذه الصداقة تمامًا.

بالتأكيد قرأت في وقت ما في حياتك قصة الأديب الروسي تشيخوف عن الحوذي، الذي كلما ركب أحدهم معه في العربة يستغل الفرصة ليحكي له قصة ابنه الذي مات هذا الأسبوع. لكن الجميع مشغولون عنه. عنوان القصة «لمن أشكو كآبتي». يفشل أيونا بطل القصة أن يجعل أي أحد يستمع له. في القصة تجده يحاول جذب الانتباه، التعلم من أخطائه في الحكي؛ فبينما كان يقول في البداية وهو يحكي لعسكري ركب معه ودون أي مقدمات: «أنا يا سيدي ... هذا الأسبوع ... ابني مات». نجده بعدها يقول لزميل في مطعم: «بالهناء والشفاء ... أما أنا يا أخي فقد مات ابني، هل سمعت؟ هذا الأسبوع في المستشفى ... حكاية!» لكن الحوذي الآخر قد غط في النوم. في النهاية، يذهب إلى فرسه، يقول لها: «تمضغين؟ حسنًا ... امضغي امضغي ... ما دمنا لم نكسب حق الشعير فسنأكل الدريس. نعم أنا كبرت على القيادة، كان المُفترَض أن يسوق ابني لا أنا، كان حوذيًّا أصيلًا لو أنه فقط عاش». ويصمت أيونا بعض الوقت ثم يواصل: «هكذا يا أخي الفرس، لم يعُد كوزما أيونيتش

موجودًا ... رحل عنا ... فجأةً. خسارة. فلنفرض مثلًا أن عندك مهرًا، وأنت أم لهذا المهر ... ولنفرض أن هذا المهر رحل فجأةً، أليس مؤسفا؟»

وتمضغ الفرس وتنصت وتزفر على يدي صاحبها، ويندمج أيونا فيحكي لها كل شيء.

٦٧

ونحن في السيارة بعدما غادرنا بيت فادي، قال لي سعيد:

- مش عارف إمتى بالظبط بقت مشاكلنا مشاكل الكبار، أنا لسه نفسيًا في حتة إن أستاذ العربي ضربني مرة في المدرسة وأنا في ابتدائي عشان حرَّفت قصيدة كدا، فخرجت جري من المدرسة، ورحت لأبويا في مكتبه أقول له تعالى الحقني فيه واحد ضربني.
- يا عم ارحمني من أي كلام مبتذل والنبي، إحنا ما كبرناش فجأة ولا حاجة.
- يا عم وشايفني يعني بكتب الكلام دا ع الحيطة؟ أنا بقوله لك في عربيتك واحنا مش بنعمل حاجة مهمة.
- طب كمِّل يا عم أنا آسف.
- لا خلاص.
- قول يا سيدي، ما تحسسنيش بالذنب.
- أقصد طبعًا أنا فاهم إننا كبار، وكمان أكبر من سننا، وعشنا وشفنا حاجات أهالينا نفسهم مش عارفينها، وممكن نكون كمان أكثر تركيبًا منهم في حتت كتير، لكن إنت عارف إن فيه جوانا طفل بيتفاجئ كدا، لما ينتبه فجأة إن الكلام جد أوي. كان اسمه ايه الكاتب دا اللي بيقول إننا ما بنكبرش، إحنا بنزيد، زي ما تكون ماشي

لوحدك، فجأة تلاقي واحد تاني جه جنبك، وواحد تالت، فتلاقي نفسك ماشي في مظاهرة كدا، كل اللي فيها هو إنت، نسخ مختلفة منك، وبيشوفوا العالم بشكل مختلف؟ مش بالظبط زي ما فرويد بيقول إن فيه لا وعي، ووعي، وأنا عُليا، لا فيه مئة وعي، ومئة لا وعي، ومليون أنا عُليا.

- آه، بيرد آرثر.
- ممكن، مش فاكر بالظبط، المهم إن بسبب إننا كتير، ففيه واحد دايمًا مستغرب من اللي بيحصل، وواحد متضايق، وواحد مبضون، وواحد بيقول ياه إحنا كبرنا، فيااه إحنا كبرنا.
- فاهمك. هو في النهاية شعور بالانفصال عن اللحظة، لكن في رأيي، الشعور بالانفصال دا شيء أكثر عمقًا من فكرة الذوات المتعددة دي، هو حقيقي أكتر؛ لإننا فعلًا متورطين في نفسنا، فيه إحساس بالتورط الدائم، الإحساس اللي جاي من إننا دايمًا مش عارفين إيه اللي بيحصل بالظبط، وكنا فاكرين وإحنا صغيرين إن فيه حد عارف، بنندهش لما نكبر، مش إننا كبرنا، رأيي، إن بالظبط يعني، بنندهش إننا ما كبرناش، وبنكتشف إن أهالينا كمان ما كانوش كبار، ففي الآخر يعني، هيا مش «يااه دا إحنا كبرنا فجأة»، رأيي إنها «يااه، دا إحنا لسه عيال».
- ما دا اللي بقوله، هو لازم تعارضني وخلاص؟
- مش عارف والله، حسيت إني بقول حاجة مختلفة.
- لا مختلفة ولا نيلة.
- أنا مش متحمس أوي لدرجة إني أثبت لك إن فيه اختلاف بين اللي بنقوله، فماشي يا عم، ياه إحنا كبرنا فجأة.
- بلاش والنبي كلام مبتذل عشان بتعصب.

يضحك.

٦٨

تشبه الوحدة أن تصحبك دومًا فرقة موسيقية ضخمة تعلن لمن يهمه الأمر ومن لا يهمه أنك شخص وحيد. تستطيع أن تفكر الآن في عشرات الأشخاص التي مثلت لك وحدتهم تهديدًا معنويًّا (بتذكيرك بحقيقة ما نختار أن ننساها)، تهديدًا قررت أن تهرب منه بالهرب منهم. ليس لدينا الوقت ولا الذكاء الكافيان لتحليل وحدة كل شخص وحيد، ولهذا نستنتج متسرعين أنه وحيد لسبب ما، سبب منطقي وإن لم نكتشفه.

الوحدة فضيحة، شائعة لا يمكن وقفها عن الانتشار، إنها بشكل ما الحقيقة، الحقيقة بعد إزالة دروع الرغبة في عبور سوء التفاهم، سوء التفاهم مستلسمًا ومقرًّا بأبديته، هذا في شكلها النقي. في شكلها المراوغ للآخرين، الوحدة تشبه أن تتحدث في موجة معينة، بينما تستقبل أجهزة أصدقائك موجة أخرى، هم يحاولون الاستماع لك بصدق، وأنت تتحدث فعلًا، لكن ليس هناك أي تواصل، ليس هناك حتى سوء تفاهم، ولا حتى محاولات جدية لفك التشفير. ودون أي مثالية، لا أعتقد أن وحدة المرء، حتى في شكلها النقي، هي مسؤولية الآخرين، هي دومًا مسؤوليتنا الشخصية؛ فالوحدة هي نحن وقد استسلمنا تمامًا لمحاصرتنا فلا نفعل شيئًا سوى الصراخ إلى الداخل، الصراخ الذي ليس فقط قد أصبح غير قابل للاستماع، لكنه أيضًا الصراخ الذي يجعلنا لا نسمع شيئًا آخر إلا صراخنا نفسه. نحتاج إلى الكثير من الجهد لنحاول الاستماع للآخرين، ولا علينا إن فشلنا؛ فالفشل ضمني في كل تلك المحاولات. لكن المحاولة بذاتها هي كل ما نملكه، وهي أمر غالبًا ما يلحظه الآخرون وإن لم يفهموه تمامًا.

في كل علاقة بشرية، يجب أن يكون وعد ما. الوحدة تُحيل هذا الوعد إلى محض أمنية خلاص فردية، محاولة تشبُّث بالآخرين كطوق نجاة، دون أن تمنحهم أي شيء في المقابل، أمنية تحكم على نفسها بالاستحالة؛ لأنها لا تجيد الاستماع للآخرين.

٦٩

يحكي نجيب محفوظ في «المرايا» عن عيد منصور أنه «منذ الصغر اتخذ من القرش معبودًا ومقياسًا للرجولة والتفوق، ولم يتسع قلبه إلا لذلك المعبود الأوحد. وكما قلت فهو الصديق بلا صداقة. صديق بحكم الجوار والزمالة واللعب وعِشرة العمر، ولكن بلا عاطفة ولا مودة، ولا حب حقيقي، يضحك للكارثة كما تضحك للنكتة، فلم يعلن أي تأثر لموت شعراوي الفحام ولا لموت جعفر خليل، ويوم قُتِل زميلنا بدر الزيادي في الإضراب لم يُكِنَّ ارتياحه لخلو الميدان من منافسه في رئاسة فريق الكرة، ولما شعر يومها بعينيَّ تحرقانه، عضَّ على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية، فقلت له: أنت شيطان! فهمس في أذني: ربنا يسمع منك! ثم بمزيد من السخرية: لا فرق بيني وبينكم إلا أنني صادق غير منافق!»

٧٠

لسنوات طويلة، حاولت أنا وسعيد تفسير ابتعاد فدوى عنا. لفترة من الزمن، كانت تبدو أنها التصقت بنا إلى الأبد، وكانت تبدي إعجابها بالطريقة التي نتكلم بها، والأهم أنها كانت تضحك على أي شيء أقوله، حتى إنها أخبرتني مرة أني عليَّ أن أترك عملي وأعمل كستاند آب كوميديان.

كان ذلك غريبًا جدًّا؛ من جهة لأنه من ضمن كل تعريفاتي الذاتية ليست الظرافة جزءًا منها، لا أعُدُّ نفسي ثقيل الظل بالطبع (فمن يقبل هذا على نفسه؟!)، لكني دومًا ما رأيت «الظُّرف» أمرًا يوجد بالمرء أو لا يوجد به. في الفصل تعرف دومًا من هو المهرج، ومن هم مجموعته التي يؤدي فقراته بالاستعانة بهم، وكان موقعي في تراتبية التهريج متوسطًا، من حين إلى آخر،

يحدث أن يفوز تعليق لي ببعض الضحكات، عدا ذلك، فأنا أقرب إلى أن أكون شخصًا جادًّا، وفي تحليلي؛ على المهرج دومًا أن يجيد الرقص؛ لأن الرقص هو القدرة على ترك الحرية للجسد، وهو أمر -كما أسلفت- لا أستطيع فعله. ولكن دعنا نناقش كيف يحدث أن تعُدَّك مجموعة ما ظريفًا. كيف يحدث ذلك؟

يقول سعيد إنه يفهم أن يخطئ بعض الناس في اعتباري ظريفًا؛ لأني أفعل شيئًا شبيهًا، وهو قدرتي المستمرة على تحطيم سياق الكلام، وهو أمر يشبه دور المهرج في الخروج على النص. المهرج في رأيه هو شخص ثوري، وإن كانت ثورته تحدث وتنتصر في اللغة، سواء كانت اللغة منطوقة أو جسدية. هو شخص يدرك حدود هذه اللغة، يدرك لا فعاليتها، بينما غالبية الناس يخضعون لها دون مساءلة إمكانية اختراقها. المهرج يخترق اللغة، يحولها من لعبة ضمنية إلى لعبة مكشوفة، هذا الكشف يُولِّد الفرح الجماعي بانتصار التمرد، فرح بالحرية اللغوية التي يقترحها.

ويحدث أن يرى بعض الناس تمردًا لغويًّا فيما يكون للبعض الآخر مجرد لعب روتيني محكوم بالقواعد، كما أن هذا التمرد اللغوي، كأي تمرد، يغلب أن تكون نتيجته الفشل، ويحدث ما يحدث منذ بداية الاجتماع، حين يدفع الثوريون اللغويون أثمان اندفاعهم، يصبحون أكثر وعيًا بسلطة اللغة، وأكثر التزامًا بها.

ولهذا أرى أن الأمر يشبه سباقًا يُقتَل فيه الخاسرون، ولذلك يقل بالوقت عدد المهرجين، حتى إذا كان المرء في الأربعينيات، يرى أصدقاءه الظرفاء القدامى وهم يسيرون حاملين جثث «تمردهم اللغوي» السابق، ومحذرين أي متمردين جدد من العبث باللغة، بينما يرى سعيد أن كلامي يكون متماسكًا فقط في حالة إذا كان الناس يدخلون مسابقة التمرد على اللغة معًا في الوقت نفسه، ولكن ما يحدث فعلًا أن التمرد اللغوى يحدث عشوائيًّا، ونتيجة لسياقات فردية خالصة، ولهذا من الممكن أن يصبح أحدهم مهرجًا في ثلاثينياته، بينما كان حتى هذا الوقت أحد جنود اللغة المخلصين، ومثلًا يكتشف فرد في ثلاثينياته أن مجموعة أصدقائه الجدد يضحكون كلما رأوه

يتمرد على اللغة بشكل معين، وهو أصلًا كان يتحدث بشكل عادي، فيقرر تصعيد هذا التمرد، وحسب دقة تقديره لمدى التمرد المستعدون هم لتقبُّله، يكون نجاحه أو خروجه من السباق.

فالمهرج يجب أن يتمرد على اللغة، لكن إلى حد معين. أن ينتصر دون أن يعني انتصاره أي شيء حقيقي، على الأقل في دائرة من يحب أن يضحكهم، فإن تجاوز هذا، بدؤوا هم أنفسهم بالشعور بالتهديد، ولذلك فإن المهرج، الذي لا يعرف حدوده، ويأخذ المعركة ضد اللغة بجدية فعلًا، يصبح متمردًا ضد ما يجعل لهذه اللغة سلطة من الأصل، وهذا قد تتفق أو تختلف معه، لكنه بالتأكيد ليس أمرًا مضحكًا.

المهم يعني أن فدوى ابتعدت عنا فجأة، دون تفسير ولا عتاب، فقط لم تعُد ترد على اتصالاتنا ورسائلنا، نتخبط بعضنا في بعض في تجمعات أوسع، لا يبدو عليها الغضب ولا العتاب، بل وكثيرًا ما تبدو فرحة برؤيتنا. وفي مرة في أحد هذه التجمعات، قلت لها إنني عائد من السينما أنا ونرمين (أحد أفراد مجموعة مندثرة أخرى)، عاتبتني بوضوح:

- إنت ليه ما بتقولِّيش ننزل لوحدنا أبدًا؟
- بس كدا؟ يا سلام، من عينيا، بتعملي حاجة بكرة؟
- بعمل، بس هخلص الشغل، تعدي عليا بعد الشغل ونشوف سوا ساعتها نعمل إيه.
- اتفقنا.

ولم أكُن أعلم طبعًا أن هذا في الموعد سأقوم بما أعُدُّه أحد أكبر أخطاء سوء التفاهم في حياتي.

- بسنت طبعًا.

يضحك. أهز رأسي يأسًا منه.

- إنت عارف إنك كدا ما شرحتش أي حاجة؟

- إنت اللي بتتكلم فعلًا. طب اصبر بس. المهم بسنت باختصار يعني لما جات فضلت تصرخ شوية مع منار، وبعدين قررت تعمل النمرة بتاعة إنها أمي. لما حبت تتدخل كان مازن لسه ماسك الحديدة وعمال يضرب يمين وشمال، وأبويا لسه متكتف وبيشتم، وأبو شاكر فيه بتاع خمسة ستة بيحوشوه. المهم بسنت سابت كل المعركة دي، وجات لي وهي بتصرخ ابني وبتاع، ودول ناس على قديمه يعني، مش هيضربوا ست مهما حصل، قعدت تضرب بإيديها في العيال اللي ماسكينِّي، فالعيال اتهتوا أو ارتبكوا فسابوني، واخد بالك طبعًا إيه اللي حصل هنا بالظبط.

- آه، راحت لك قبل مازن.

- بالظبط، مازن ما كانش مركز أوي، واتعصب أكتر لما شافها لإنه كان فاكر إنها هتنضرب، فساب تموقعه الممتاز في المعركة، واتحرك ناحيتنا، فعيل استغل نزول البطل من حصنه، وقام ضربه بالمطواة في عينه، مازن تفاداها، فما حصلش حاجة، الحمد لله يعني، إلا جرح فوق عينه الشمال، متهيَّألي ممكن تكون خدت بالك منه. قلت لك إن سجق وبطاطس كانوا معانا، مش كدا؟ المهم إن تقريبًا سجق كان خد باله من الأول إنها هتقلب نكد، فاتصل بأخوه، أخوه دا كان أكبر مننا بسنتين، كان في شرطة، وبيتهم قريب مننا، فعبد القادر اللي هو

أخوه، يادوب كان وصل هو وأصحابه، وعبد القادر دا حكاية تانية يعني. المهم إنه كان شخص عاقل، ولما جه عرف يفصل الخناقة بشوية زعيق وتهديد وبتاع، المهم إن أبويا قعد يزعق ويقول دا جزاتي إن جاي أصالح بينكم وبتاع، وغيَّر تموقعه في المعركة، هو بيزهق بسرعة يعني، وكان جاب آخره، فالدنيا كانت بتتلم، قعد يشخط فيَّا طبعًا، وقال لي هو أنا ربيت عيل صايع يتخانق في الشارع، وبعدين قال لي لو قلت لأمك أي حاجة مش هتخش البيت تاني في حياتك. هو أنا كنت حكيت لك إن ماما كانت هددته قبل كدا إنها تسيب البيت لو اتخانق في الشارع تاني، بعد خناقته مع أصحاب المطعم اللي تحتنا؟ حكيت لك القصة دي؟

- أرجوووووك، ركِّز يابني في القصة، وهنرجع لسجق وبطاطس وأبوك والمطعم وكل اللي قلبك يحبه.
- آه، هو مفيش حاجة حصلت بعد كدا، عبد القادر خد مازن وراح بيه المستشفى، وأبويا وعم شاكر على بالليل كانوا بيتعشوا في بيت واحد من ولاد عمه، والأمور اتحلت.
- أيوا، أُمَّال إنت بتحكي لي كل دا ليه؟
- عشان حكاية إن بسنت جات لي قبل مازن، الموضوع دا كنت نسيته تمامًا يعني، وطبعًا كان باي باي منار يعني، أنا مش بطل إغريقي زي أبويا، وفكست للموضوع، لحد ما قابلت بسنت مرة في الكلية، كان تقريبًا في تالتة، هي ومازن كانوا في نفس الكلية سوا. أنا حكيت لك عن هايدي اللي كنت بحبها في أول الكلية، قبل بسمة يعني؟

يغمز ويضحك.

- إنت مدرك إنك بتحكي إزاي، مش كدا؟
- آه، بس والله دا كله مهم. المهم أنا وهايدي كنا ماشيين في الشارع فقابلنا مازن وبسنت، كنت بقى لي سنين ما شفتهمش، فقعدنا نتكلم والأحوال وفين ومنين وإزاي وبتاع، وما حسيتش إن أي حاجة

حصلت، فهايدي سألتني إذا كنت متخانق أنا ومازن لسبب، لإنه كان بيبُص لي وحش جدًّا، قلت لها ما خدتش بالي، طلع إيه بقى؟

- بسنت قالت له إنها كانت بتحبك.
- بالظبط، عرفت منها بالليل يومها، كنا ادينا أرقامنا لبعض، فبعتت لي رسالة طويلة عريضة، تقول لي فيها إني لو قابلتها تاني مع مازن ما أتكلمش معاها، عشان هو زعق لها. طبعًا هايدي كانت عاوزة تبلغ عنه أو نجيب عيال ونضرب مازن أو على الأقل نهدده؛ لإنها كانت بتقول لي إنه أكيد ما زعقلهاش بس، وأكيد ضربها، إنت عارف دايمًا صاحباتي بيكونوا عاوزين يهدوا العالم ويبنوه، بس أنا قلت لها ما نعملش حاجة، بس تحت الضغط يعني، بعتت رسالة قصيرة بقول لها فيها إن لو فيه حاجة أنا موجود وبتاع، ما ردِّتش عليَّ، فطنشت الموضوع يعني، وما اتقابلناش بعدها غير مرة واحدة، ما قابلتهاش، قابلت مازن، واكتشفت إنه بقى شخص تاني تمامًا غير اللي أعرفه، كان فرح سجق، وهناك لقيت بطاطس، بيميل عليَّ ويقول لي: إنت عارف إيه اللي حصل لمازن؟ قلت له: لأ. فقعد يحكي لي.

- طبعًا هتحكي لي حالًا حكاية من مليون جزء تاني.
- مش مليون والله، هم تلات قصص بالظبط، أو أربعة بالكتير، ولَّا فاكس والله، بس الأول هحكي لك حكاية سجق دي، دي النسخة المعاصرة من ملحمة جلجامش.

أضحك يأسًا منه، يضحك.

٧٢

وفي ملحمة جلجامش، وهي ملحمة تعود نسختها الأكثر اكتمالًا إلى القرن السابع قبل الميلاد، يقتل جلجامش وصديقه أنكيدو ثور السماء، الذي أرسلته عشتار للانتقام من جلجامش لرفضه حبها. تتخذ الآلهة القرار بعقاب أحد الاثنين، ويقع العقاب على إنكيدو. يموت إنكيدو، وفي اللوح الثامن من الملحمة:

لم تكَد تلوح أنوار الفجر

حتى فتح جلجامش فمه وقال لصديقه:

«أنكيدو، يا صديقي، يا من أنجبتك أمك الغزالة،

وأبوك حمار الوحش.

أرضعتك من لبنها أربع حُمُر وحشية،

وأرشدتك حيوانات البرية إلى كل أماكن الرعي.

المسالك التي قادتك يا أنكيدو إلى غابة الأرز،

لتَبكِ عليك ولا تتوقفْ عن البكاء ليل نهار!

ليَبكِ عليك شيوخ أوروك الفسيحة الأرجاء،

وليُصَلِّ الشعب كله بعد موتنا!

ليَبكِك الرجال الأبطال، والجبال فى المرتفعات!

لتَنُحْ عليك المروج والبراري نواح أمك،

ليَبكِك الدب والضبع والنمر والثور البري والفهد،

والأسد والثور الوحشي والأيل والجدي وكل حيوان الحقل.

ليَبكِ عليك نهر (أولا) الذي طالما تمشينا على ضفافه،

وليَبكِك نهر الفرات المُقدَّس!

...

اسمعوني يا شيوخ أوروك، أنصتوا إليَّ،

إنني أبكي أنكيدو، أبكي صديقي،

وأنوح عليه نواح الندابة.

أنتِ أيتها الفأس في جنبي، تشد أزر يدي،

أنت أيها السيف في حزامي، والدرع التي تحميني،

أنتِ يا حُلَّة عيدي، يا مشدًّا لفَيْض قوتي،

لقد ظهر شيطان لعين واختطفه مني.

أي صديقي، أنت أيها البغل الخفيف،

يا حمار الوحش الجبلي، يا فهد البرية!

بعد أن أتممنا معًا كل شيء وارتقينا الجبل،

واستولينا على المدينة، وصرعنا الثور السماوي،

وقتلنا أيضًا خمبابا، الذي كان يسكن غابة الأرز.

أي نوم هذا الذي أطبق عليك؟

٧٣

يرى سعيد أن أحد أسباب أزمة التواصل البشرية أننا لا نعيش في اللحظة نفسها، يوجد دائمًا فرق بين الزمن الحالي بالنسبة إليَّ، والزمن الحالي بالنسبة إليك. لا يقتصر الأمر فقط على أننا نعرف تحديثات العالم بشكل غير متزامن، ومن ثم نتحرك دائمًا في عالم مختلف؛ فهذه مسألة قد حلتها جزئيًّا الهواتف الحديثة، ولكن أيضًا لأننا نتحرك بسرعات مختلفة، بحسب ما يتوقع عقلنا صورة العالم بعد لحظة، بعضنا يؤهل نفسه على العالم كما سيحدث بعد يوم، بعضنا ما زال لم يُجرِ تحديثات في عقله للعالم، حتى مع توافر المعلومات، منذ عامين، هذا أمر نسبي وذاتي تمامًا، ليس الأمر أنه ليس هناك «واقع» حقيقي مشترك، فهناك «واقع» حقيقي مشترك نتحرك فيه، ولكن هذا الواقع لا يمكن بلوغه إلا باللغة والمجازات، بعض المجازات أكثر فعالية من غيرها في لحظات ما، ثم تجيء مجازات أخرى أكثر فعالية منها.

وفي رأيه، الصداقة هي إحدى محاولاتنا للعيش في اللحظة نفسها؛ إذ عادةً ما يكون الأصدقاء يعيشون بالقرب بعضهم من بعض زمنيًّا. من دون الصداقة، نحن لسنا فقط وحيدين في عالم مليء بالتغيرات، نحن، في رأيه، وحرفيًّا، وحيدون، في عالم غير موجود من الأصل. بهذا المعنى، الصداقة ليست فقط تجعل العالم أكثر قابلية للتحمل، هي أصلًا، وبمعنى ما، ما يجعله موجودًا.

٧٤

ثم هناك طبعًا، أحد أقدم أنواع الصداقات، صداقات التشبث، من يجدونك في حالة ارتقاء فيتشبثون بك، آملين أن تُحلِّق بهم إلى أعلى. وأختلف أنا وسعيد في تقييم هذه الصداقات؛ فبينما يرى أن الأمر ليس انتهازيًّا تمامًا،

وكل ما هنالك أنهم يقعون في حب نسخة منك، نسخة ساحرة، وأنه ليس من السهولة أبدًا الحكم على صداقة ما بالانتهازية؛ لأننا في كل علاقاتنا ننتظر تحقُّق وعد ما (ماديًّا كان أو عاطفيًّا).

لكن في رأيي ما يجعل هذه الصداقات مختلفة أن الوعد ليس أحد مكوناتها، هو مكونها الوحيد، وبفقدانه تنتهي الصداقة. أختلف معه لأنه صحيح أن كل علاقاتنا تحمل وعدًا ما، لكنها أيضًا تحمل وعيدًا، هناك شيء مخيف في الاقتراب من أي شيء، شيء مخيف تعرفه جيدًا؛ لأنك تعلم الجوانب المظلمة داخلك، وتدرك صعوبة ظروفك، وحتى إنك تتذمر أحيانًا من حتمية تحمُّلك لنفسك، ولذلك نشعر باندهاش حين يرانا فعلًا شخص ما ولا يكتفي بعدم الهرب، بل يخطو أسرع باتجاهنا.

في رأيي، اللامبالاة تجاه الوعيد هي المكون الأصلي للصداقة، والوعد هو حلمها.

هنا يقول سعيد أنني فقط أعيد ترتيب الكلماتَ لكني لا أختلف معه؛ لأن هذا الشخص المقترب، الذي لا يأبه للوعيد، هو لا يأبه له لأنه يُسحَر بشيء ما فينا، شيء لا نراه لأنه هو نحن، والوعد هنا ليس وعدًا ماديًّا؛ فقد يكون الوعد أصلًا هو سماحك له بالاقتراب، هو لا يريد أن يقترب منك لكي...، بل يريد أن يقترب فقط، وهذه هي المفارقة؛ فنحن لا نستطيع تمامًا أن نعرف شخصًا آخر، وأيضًا لا نستطيع معرفة أنفسنا فعلًا إلا بعد رؤية الآخرين لنا، أو بتعبير سارتر، حسبما أذكر، نحن نكتشف أنفسنا في نظرة الآخر إلينا؛ ليس لأنها بالضرورة أدق من فكرتنا عن ذاتنا، لكن لأنها اعتراف بوجودنا. لكني أرد عليه أنه لهذا تحديدًا فأصدقاء التشبث ليسوا حتى «آخَر»، لأنهم أصلًا لا يروننا، هم مسحورن بالوعد الكامن فينا، عن حق أو انخداع، بحيث يُعمَون عن كل شيء آخر، ونشعر بضرورة أن نحافظ على هذا الوهم ليظلوا موجودين، وهذا ما يُشعرنا بالانقباض في حضرتهم؛ لأنه يُحتفى بك بصخب، شرط ألا تكون موجودًا، أنت في حضرتهم منفي من وجودك، بانتظار عين أخرى تراك وتُخرجك من هذا العدم إلى الوجود مرة أخرى.

لكن هناك نقطة أخرى في صداقة التشبث هذه، وهي لماذا يجتذب بعض الناس دومًا هذا النوع فقط من الصداقات، تجدهم دومًا مُحاطين بمجموعات لن تأخذ دقيقة واحدة في ملاحظتها لكي تعرف أنهم «بتوع مصلحتهم». أو لنغير السؤال: هل من الممكن لشخص هو نفسه لا يطمح إلى صداقة تشبُّث مع أحد، أن يجتذب وحصريًّا من يريدون التشبث به؟

أظن أننا كنا نتحدث عن سلوى، زميلته في العمل، والتي كانت تشكو إليه دائمًا أن أصدقاءها دائمًا ما يطمحون إلى أن تساندهم معنويًّا، وحين تكون هي في حالات سيئة تصبح وحيدة تمامًا. يوجد احتمال أول بالطبع أن تكون شكواها هذه نفسها جزءًا من تمحورها حول نفسها، هي تحسب دائمًا ما تعطيه للآخرين، وهذا أمر حين يكون واضحًا للطرف الآخر يعرف أنه ليس في علاقة صداقة، أنه مدين، والكثيرون يهربون وقتما يحين أوان سداد ديونهم، هذا لا ينفي عنهم صفة الانتهازية طبعًا، لكنه يجعلها مفهومة. لقد كانوا غرقى وهم ينتقلون من أداة نجاة إلى أداة نجاة أخرى، دون أي ارتباط عاطفي مع هذه الأداة، وربما الصلابة الظاهرية لبعض الأشخاص أو حكمتهم المُفترَضة أو حتى نجاحهم المادي الصريح هو ما يجذب هؤلاء الزومبي إليهم، كمركب إنقاذ في سفينة على وشك الغرق.

هذا التشبث آجلًا أم عاجلًا يُسقط المُتشبَّث به، ويُفاجَأ في سقوطه أنه وحيد تمامًا، وأنه في غمرة الانتشاء بقيمته في العالم، كأداة للنجاة، قد نسي أن يخلق علاقات خالية من هذا الاعتماد، نسي نفسه، هو ضحية، لكنه ليس ضحية تامة البراءة؛ إذ يبقى هناك احتمال أنه نسي عمدًا أن يخلق علاقات صحية؛ لأنه كان يخاف الوعيد فيها، يخاف من جوانب الصداقة الحقيقية الصعبة، وهي أن أصدقاءنا لا يكونون مسحورين بنا فقط، بل يغضبون أحيانًا، ويفقدون أعصابهم أحيانًا، لأنهم يروننا، وحين نخاف من الانكشاف للآخرين، لا يبقى إلا هؤلاء الزومبي.

٧٥

بعد سنة ونصف من انفصال سعيد ونسمة، قال لي إنه أحب فتاة أخرى في فترة ما قبل الانفصال، تلك الفترة التي تعرف فيها أن الأمور متجهة إلى الهاوية، ولا تملك إلا أن تنتظر وتسقط.

كانت قد مضى على وجودها في فرنسا سنة كاملة، قطعتها مرة واحدة لتكون هنا لشهرين، رافضة أي تعجُّل في إجراءات الزواج به، ومن جهة تضغط عليه ليستقيل من عمله الجديد ويسافر إليها. كانت تحدثني من حين إلى آخر أنني يجب أن أدفعه من مكانه الذي لا يتحرك منه، وتقول لي إنه يحاصر نفسه بنفسه دون أن يدري.

في رأيها كان يسقط، وكانت غير قادرة على رفعه ما دام لا يريد ذلك. وفي هذه الأثناء أخبرته أنها خرجت في موعد مع رجل آخر. لم يحدث أي شيء، لكنها أحست أنها هي الأخرى مُحاصَرة في هذه العلاقة. أخبرته وهي تبكي فور عودتها من هذا الموعد. تفهَّم إحساسها أو قال إنه تفهَّم، وعدها أن يلم شتات نفسه، ويضع خطة يمكن تحقيقها للسفر إليها.

في تلك الفترة، ودون مقدمات، وقع في حب زميلة له، أو يقول إنه وقع، يقول لي إنه لا يدري إن كان ذلك حبًّا حقيقيًّا. كانت الفتاة منجذبة نحوه بوضوح، معمية تمامًا عن رؤية سقوطه الحالي، وكان ذلك في ذاته ساحرًا له، كأنه اعتراف أنه لم يسقط بعد.

لا يعلم يقينًا حتى الآن إن كانت الفتاة أحبته أو لا، لكنه استعذب ذلك الشعور. وبسبب ما فعلته نسمة، رأى أنه لم يخطئ في شيء ما دام هو الآخر لم يُخرج هذه المشاعر إلى العلن قط، وإن سببت هذه المشاعر فتورًا واضحًا في تعامله مع نسمة.

في الوقت نفسه تقريبًا، كان أبوه يعيش أيامه الأخيرة في المستشفى، كما كان عليه الوقوف بجوار سمر في زواجها؛ لكي يُعوِّض غياب أبيه، وبجوار كل ذلك، كان عليه أن يواجه أخيرًا اكتئابًا حادًّا أقعده عن العمل لشهر كامل. قال لي وقتها إنه يشعر أن جسده مشدود من أطرافه كأنها تكاد تنخلع، كل مشكلة من مشكلاته تُمسك طرفًا منه وتشده حتى النهاية. أجبته محاولًا التخفيف عنه أن يترك الاكتئاب والقلق لي؛ فهذه ممتلكاتي، وليس من حقه فجأةً أن يحتل دور البطولة في فيلم قضيت عمري فيه. لكنه كان يغرق.

أدفعه إلى الطبيب النفسي، أدفعه للخروج، أدفع بسنت وفادي ليدفعاه للخروج، أشعر بالعجز، أحاول أن أجعله يرى نسمة في عينيَّ، لكنه -كأي محب- كان قد حولها إلى شيء آخر، شيء يعرف هو عميقًا أنها ليست هو، وتعرف هي من أعماقها أنه لم يعُد يحبها هي. يقول لي إنه يكره الحب، ويحتقره، ويستغرب كيف لم يفطن علم النفس أنه اضطراب نفسي مثل بقية الاضطرابات، ويحتقر أنه -رغم هذا الوضوح الفكري- خاضع له تمامًا.

عندما أخبرته نسمة أنها تريد الانفصال كنت جالسًا معه في بيته، أخذ في قذف الأكواب والكراسي، لم أرَه غاضبًا قط، ولم أتخيل أنني حين أراه غاضبًا سيكون بهذا الغضب اليائس، الغضب من نفسه، الذي لا يعرف ولا أعرف كيف يمكن مواجهته. وبعدها بفترة طويلة، سأنتبه، كالأحمق، أن بعدها بيوم واحد كانت أول مرة أراه يتحدث وهو يضم كُمَّي قميصه إلى يده. ولكن، كما يقول المثل، بالضبط، حين تعتقد أن الأمور لا يمكنها أن تسوء أكثر، تسوء أكثر، وفي حالة سعيد كانت الأمور بالأصل أسوأ مما كنت أعرف؛ فقد خبَّأ عني، كعادته، أهم جزء في قصته المتشعبة.

٧٦

تشبه الصداقات الكتب. يُفتَن بعضنا بالكتب التي تقول له ما يرضيه أن يقرأه، تأكيدًا على رؤيته للعالم. يُفتَن بعضنا بالكتب التي تكشف له عالمًا لم يكُن يعتقد أنه موجود. يُفتَن بعضنا بالكتب التي تتحدى رؤيته. بعضنا يحب الشعر، آخرون يحبون علم النفس أو الفلسفة أو الروايات. أحيانًا يكون لنا أعداء من الكتب، ككتب ضايقتنا بالشكل الكافي حتى أننا ننتهز كل فرصة للنيل منها.

وكالكتب، الصداقات التي لا تغير فيك أي شيء، يمكن خصمها من المعادلة، إنها تقريبًا غير موجودة، أو موجودة كما تشتري كل الألوان المتاحة من قميص أعجبك، كل لون من ألوان هذا القميص لا تحمل معنى في ذاتها، مريح، ويحمل عنك عبء اختيار ملابسك كل يوم، ومثل الكُتَّاب المحترفين في قول المُتوقَّع منهم قوله، يوجد أصدقاء دائمًا يبدون لنا آمنين؛ لأنهم لن يفاجئوننا أبدًا. لكن ما معنى إذن أن يوجد شخص ما في حياتك، أو أن تقرأ كتابًا، كنت ستكون أنت من دونه؟

٧٧

التقيت بشريف عدة مرات في أحداث عامة، قبل أن يطلب أن يلتقي بي ليحدثني في شيء ما. التقيته، حكى لي قصة حبه الفاشلة، هجرته علياء بعد شهر واحد من اتفاقهما على الارتباط، ولا يستطيع أبدًا التفكير في أي شيء آخر عداها. قال لي إن السبب الذي قالته له إنها غير مستعدة لتحمُّل عبئه العاطفي وشكاواه المستمرة.

ذكَّرني هذا أنه قبل أن ألتقيه بفترة قصيرة، أخبرتني زهراء، أحد أقرب

أصدقائي وقتها، أنها غير مستعدة بأي شكل لتحمُّل أي عتاب من جانبي لابتعادها عني. كانت غارقة في مشكلات متكررة مع والدتها، مع أخيها، في عملها، في خطتها لتحضير الماجستير. كانت هذه المرة الأولى التي أواجه فيها مباشرةً رفض أحدهم لصداقتي، وخصوصًا أنني كنت أحسب علاقتنا مبنية أصلًا على تحمُّلي لشكاواها وليس العكس.

استغربت أن يحدثني شريف عن أمور شديدة الشخصية بينما لا يعرف بعضنا بعضًا. يتصل بي كل يوم لنجلس في المقهى ويحدثني عن علياء. أختصر لك بإخلال هذه العلاقة المختلة.

كانت علياء أعلى منه طبقيًّا واجتماعيًّا، أكثر تحقُّقًا منه بسبب ذلك فقط، بينما كان هو كفرد واعدًا أكثر منها. كان مثل أبيها يعمل رسامًا، وهي مهنة استغربت أصلًا وهو يتحدث أنها مهنة. تذهب دومًا في رحلات خارج البلاد لـ «اكتشاف العالم»، تخرج من موضة ثقافية إلى موضة ثقافية أخرى، لديها اعتداد بالذات يمكن اتهامه بأنه حس استحقاق نرجسي، تدخل وتخرج من علاقاتها بخفة، إن رأت أن الأمور تتخذ منحى دراميًّا أو شعرت أنها ستتخذ منحى دراميًّا، تقفز فورًا. وهي على ذلك، حنونة، وواضحة، ولا تعد أبدًا بأي شيء، متسامحة مع تشبُّث الآخرين بها، ما دام لا يُعرِّضها ذلك للسقوط.

في المقابل، كان شريف رومانسيًّا، محبًّا لألمه الشخصي، وربما يراه كختم يوثق أصالة حبه، متحققًا في مجاله ومُعترَفًا به، كما أنه كان يخونها أيضًا، مبررًا خياناته بأن هذه طبائع الرجال. في العادة، كانت ستنتهي علاقتي بشريف في الجلسة المنفردة الأولى، لكنني كنت جريحًا مما فعلته زهراء، وقررت وقتها ألا أقطع علاقتي بأي أحد، مهما كان ثمن ذلك.

ظللنا نلتقي يوميًّا لثلاثة أشهر؛ يأتي للبيات عندي في البيت، يصحو من منتصف النوم وهو يبكي. وفجأةً لم يعُد موجودًا. قلت لنفسي إن علياء كانت أكثر فطنة مني. لكن بعدها بعدة أشهر، عرفت أنه قد تزوج بعلياء. وفي إحدى المرات بينما أتمشى أنا وسعيد، رأيتهما معًا. التقت أعيُن كلٍّ منا، لكنه أشاح نظره بسرعة، وتظاهر بالانشغال. حكيت لسعيد ما حدث، ثم حكيت له

ما حدث مع زهراء. واساني بأنني نجوت من فخ كنت سأسقط فيه إلى الأبد. لكنني كنت غاضبًا، وفي ذروة هذا الغضب، وفي توقيت غير مثالي، فهمت ما كانت تقوله زهراء، وغضبت أكثر أنني لم أنتبه. بعدها ستتصل وتعتذر لي على قسوتها. كنت أعرف أنها كانت محقة في قطع صداقتنا، لكنها حين عادت، كانت محطمة تمامًا، ومدَّت يدها لأمسكها، أمسكتها فعلًا، لكن، بداخلي، كانت هذه الصداقة قد انتهت إلى الأبد.

«خاتمة حكاية إيه بس؟ لسه ستو سماح ما طلعتش المسرح».

تضحك هدير. ضحكتها تميل إلى العلو المفاجئ غير المنطقي، ثم النزول التدريجي.

- هقول لك، ستو سماح دي تبقى أم أبو مروان، ولما عرفت إن مامة مروان متضايقة عشان جوزها اعتذر لماما، حاولت تصالح بينهم، وقالت لمامة مروان ما تقلقش من حاجة. هو أصلًا ما كانش بيحب أمي، وهي اللي كانت بتضغط عليه عشان يتجوز، وإنها عمرها ما حبت جدتي عشان كانت دايمًا متقنعرة ع الفاضي وفاكرة نفسها برنسيسة، وعاوزة كذا وعاوزة كذا، فست مروان قالت لأبوه: «سيبها، أنا هجوِّزك بنت واحدة صاحبتي، قيمة وسيما، وكمان بنت ناس»، ما كانتش تعرف طبعًا إن عينه أصلًا من خالتي.
- طب كدا هبدأ أتلخبط، بس لحد دلوقتي ستو سماح دي ما عملتش حاجة مستفزة.
- آه، ما جايَّالك أهو، ما هي ست مروان لأمه ما كانتش صاحبة سته لأبوه، فأمه كدا عرفت إنه جوزها، أبو مروان، ما كانش خاطب قبلها

مرة، كان خاطب قبلها مرتين، مرة لماما ومرة لبنت صاحبة أمه، فقعدت تتخانق مع ستو سماح دي، لحد ما ستو سماح قالت لها ما كانش خاطب مرتين ولا حاجة، هو اتجوز التانية أصلًا، وقعدوا سوا سنة. بعدها اتطلقوا، فمامة مروان رجعت اتخانقت مع جوزها، وقررت تسيب البيت. فتروح فين بقى؟ قول أكتر حاجة بعيدة في دماغك.

- بيت خالتك سوسن.

- برافو، هي كلمت طنط سوسن عشان تشتمها، فالتانية احتوتها وبتاع، ووقفت في صفها، وقالت لها لو حابة تعالي اقعدي معايا شوية على ما تهدي. قلت لك إن طنط سوسن مطلقة وعندها تلات عيال، بس محدش منهم عايش معاها بسبب حوار تاني كدا. المهم إن مين بقى يشوف مامة مروان عند طنط سوسن؟

- طليق طنط سوسن.

- إيه دا؟ جبتها إزاي؟

- ما جبتهاش، هو دا نمط تصاعُد القصة لحد دلوقتي.

- المهم، طليق طنط سوسن دا قال لها هي مين اللى معاكى، فحكت له القصة، فقرر هو كمان يتدخل، ما هي أردغانة بقى، فيختار من كل العالم اللي مدعوسة في الحوار مين يكلمه؟

- مامتك؟

- لأ طبعًا، هو متخانق معاها من ساعة الطلاق.

- أبوكي؟

- لأ، ما نفس القصة.

- أبو مروان؟

- لأ.

- ماعادش إلا أمه.

- لأ، قرر يكلم جد مروان لأمه.
- عشان عاوزها تتطلق ولا إيه؟
- ها ... هههههه، يا ريت.

الفصل الخامس

«بعض الناس يعرفون كل شيء عن النباتات بعضهم عن السمك وأنا أعرف الفراق»

٧٩

إذا كانت اللغة تُوضِّح وتُشفِّر في الوقت نفسه كما يقول سعيد، وإذا كانت تفعل ذلك بالرغم منا، أي إننا نحتاج نحن أنفسنا إلى فك تشفيرها لنفهم عن ماذا نتحدث، كما يقول العبد لله؛ فهذه رؤية أحادية البعد للموقف؛ فامتداد الفكرة نفسها، أن من يحدثنا هو أيضًا يُشفِّر كلامه، وكلامه مُشفَّر له، أي إن كنا لا نستطيع التعبير عن أنفسنا إلا بالضبط كما نُعبِّر عنها في الأحلام، فنحن لا نتلقى من الآخرين سوى أحلامهم أيضًا. هذا هو البعد الثاني للموقف. البعد الثالث أننا كثيرًا ما نُشفِّر حديثنا عمدًا؛ لأن هناك ما لا نحب الحديث عنه صراحة، وهذا التشفير المُتعمَّد نفسه يُشفَّر هو نفسه في اللغة. وفي معركة التشفير المتتالي والمُركَّب هذه، يوجد ما نفقده تمامًا، ما ينكسر داخل المعنى دون قدرة على ترميمه حتى لو فككنا الشفرة.

لدينا بالطبع أسبابنا الخاصة لعدم قول ما نريد قوله، ولكن لأننا نريد أن نتكلم، نحاول أن نحكي الحكاية دون أن نحكيها، نحذف منها ما هو قابل للتشفير، مع إنقاذ المعنى أو غرض الحكي، ونستبدله بعنصر آخر. مثلًا إذا أراد أحد أن يحكي حكاية والده الذي مارس عليه عنفًا جسديًّا دون أن يحكي الحكاية، يتحول هذا الأب المفترس إلى مدرس في المدرسة، أو إلى متنمر في الشارع. وصحيح يبدو هنا أن المعنى ما زال ممكنًا إنقاذه؛ ففي النهاية تعرَّض الراوي لعنف جسدي في طفولته، لكن المعنى أصلًا أنه تعرض لعنف من أبيه تحديدًا، الحكاية عن الأب وليس عن العنف، ونحن نستقبل هذه الحكاية نستغرب؛ إذ توجد طرق متعددة للهرب من المدرس ومن المتنمر، فلماذا يبدو أن الراوي مستسلم تمامًا لهذا العنف؟ لماذا لا يخبر أباه أن مدرسًا أو متنمرًا يضربه؟

يعلم الراوي هذا المأزق، فيقول إن هذا المدرس كان مدير المدرسة، أو أن المتنمر كان يبدو أقل قوة جسدية منه، وإذن خشي أن يسقط من نظر أبيه؛ لأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ضد شخص أقل قوة.

الراوي هنا يريد إيصال المعنى بأي طريقة، لكن كل طريق مراوغ يسلكه يبعده أكثر عن المعنى. وفي الأصل، حتى لو حكى الأمر مباشرةً وبوضوح، يظل هناك ما هو غير قابل للانتقال منه إلى المستمع؛ فهو يظن أن المستمع سيفكر: «تعرضت إذن للضرب من أبيك، من لم يتعرض لذلك؟ هل أنت طفل حتى تظل تبكي في رجولتك على علقة تلقَّيتها منذ زمن طويل؟»

وبجوار كل ذلك، هو نفسه لا يفهم بالضبط ما يريد قوله، لا يفهم بالضبط سبب سلوك أبيه، ولا يفهم لماذا يؤثر فيه هذا الأمر إلى هذه الدرجة، ويسائل نفسه: «هل من الممكن أن جزءًا من الحكاية أصلًا قد خبَّأه اللاوعي إلى الأبد؟» فنحن نحكي لنفهم، ولا نفهم لأننا حين نحكي نُشفِّر ما نود قوله، وفي هذا الشتات الدلالي نعثر على من يفهم من حكاوينا شيئًا ما، هو نفسه لا يعلم تمامًا ما يفهمه، ولكنه يشعر أنه على وشك فهمك، يقترب أكثر ليفهم أكثر، تحكي أكثر، لا يزيد فهمه، فيقترب، وتقترب.

هذه أجمل هدية من الممكن أن تتلقاها.

يعلم الآخر تمامًا أنك ما زلت غامضًا بالنسبة إليه، لكنه لا يخاف ولا يرتبك. هذا ما أقصده أننا لا نملك سوى أن نحاول العبور، وحقيقة أن هذا العبور لن يكون أبدًا سوى محاولة لا تُقلِّل أبدًا من قيمته، بل على العكس، نعرف أن خلف هذه المحاولة اليائسة شخصًا ما، يعرف أننا هنا، هو دائمًا في طريقه إلينا، وهذا أقصى ما يمكن أن نتمناه من الحب.

وإذا كان إسلام يوسف يقول: «إن الدنيا لا تزال مُحتمَلة ما دمت في الطريق إلى مكان ما»، فأيضًا لا تزال الدنيا مُحتمَلة مادام أحد ما في الطريق إليك.

٨٠

من أشهر مقولات هيجل، وهو بالطبع كأي فيلسوف يستحيل تلخيصه في مقولات، أن «كل ما هو عقلاني واقعي، وكل ما هو واقعي عقلاني». وفي العادة يمكن أن تُفسَّر المقولة بطريقتين؛ إما أن العالم كما هو وجود متماسك منطقيًّا تمامًا، بشكل يصبح فيه الطريق بين العقل والواقع دائريًّا يحيل إلى نفسه؛ وإما كل ما هو موجود في العقل واقعي، إذن يصبح أي ضجر أو انتقاد عقلي للواقع هو نفسه واقعيًّا أيضًا، أو قابلًا لأن يكون واقعًا.

ترى بالضبط سبب حذري من الاقتباسات. المهم أنني أقول ذلك لأننا كلما تمادينا في محاولة فهم أي سلوك، سيصبح هذا السلوك مفهومًا، وحين يصبح مفهومًا نميل إلى اعتباره -بأثر رجعي ونتيجة لتلاشي الاحتمالات الأخرى- حتميًا؛ ولهذا، مثلًا حين نبذل المجهود العقلي الكافي، يمكننا أن نفهم لماذا تصرف كل أحد بالشكل الذي تصرف به (سواء كان تحليلنا لأسباب ذلك دقيقًا أم لا)، وحين يصبح سلوكه هذا مفهومًا، نخسر أحيانًا قدرتنا على عقلنة غضبنا منه أو حبنا له.

هذه الطريقة في التفكير مؤذية لنا؛ لأننا نحتاج في حياتنا أن نحب ونكره، وأن نمتلك حق الشكوى، وحتى النواح، من تصرفات نعرف جيدًا أنها مفهومة تمامًا، لكننا حين نتعود على دور العقلاني في المسرحية، وحتى ونحن نعرف أن من حقنا الشكوى، نرتبك حين نشكو؛ لأننا نعتقد أننا نفهم بالضبط ما حدث، ونعتقد -لأننا نفهمه- أنه كان حتميًّا، ونرتبك أيضًا لأن الطرف المُستقبِل للشكوى هو نفسه يحاول التخفيف عنا بمحاولة منطقة تصرفات من آذانا، بحيث تزيل هذه المنطقة «الأبعاد السحرية الشريرة» للآخر، لكننا لا نكره من آذانا لأن ما فعله غير منطقي، نكرهه لأنه آذانا، لأننا لسنا التجسد الواقعي للعقل في العالم، نحن مجرد أفراد، واقعيون، محدودون، ولنا موقعنا في هذا العالم، ونشعر بما نشعر به.

٨١

هل تعرف أسوأ ما في الخيانة؟ أنها غالبًا ما تكون مفهومة، وتقليدية، ومتوقعة.

في سياق حياتنا الأساسي، العالم مليء بالرموز والتشفيرات. الخيانة، بصفتها عالمًا مؤقتًا وسريًا، غالبًا ما تكون أوضح لأنها أوَّلية. عالم بُنِيَ على عجل، حكاية طويلة مُلخَّصة في جملتين، دون حبكات مُعقَّدة ولا رموز عاطفية متشابكة، شيء مباشر. إنها -بمعنى ما- أكثر وضوحًا من العلاقات الأصلية نفسها. يعرف ذلك جيدًا من أحس بالخيانة، هو يغضب لأنه يفهمها، ولأنه يعلم أنه من فرط وضوحها لا يمكن للطرف الخائن أن يقدم أي اعتذارات أو تبريرات، تجعل من تعرض للخيانة يتفهم أكثر، هو أصلًا يتفهم الأمر، كأنك تعطي عالم رياضيات معادلة من ثلاثة عوامل كلها مُعطاة.

الخيانة بهذا المعنى ليست مجرد تملُّص من اتفاق، إنها اعتداء على العالم بصفته عالمًا مُركَّبًا ومُشفَّرًا ومبنيًّا على قواعد اجتماعية ونفسية وطبقية وشخصية بلا نهاية. إنها تعود بهذا العالم المُشفَّر إلى شكله الأوَّلي تمامًا، كأنه العالم ما قبل الحضارة، عالم نعرفه جيدًا، ونعرف كيف يسير، لكننا تركناه بمحض إرادتنا، وفجأة، تجد نفسك في هذا العالم الأوَّلي، غاضبًا ومستثارًا، وتندهش حتى من المشاعر الأوَّلية التي تحسها، ويُصعِّب هذا عليك -مهما أحببت- أن تحكي. ماذا تحكي بالضبط؟ لقد تمت خيانتك، الأمر مفهوم، وشخصي، ولا يمكن لأحد أن يشاركك إياه، بما فيه الشخص الذي خانك ذات نفسه.

٨٢

ثم هناك صداقات الاستعراض؛ اثنان يترابطان لأن صداقتهما تضيف إلى الصورة العامة لكلٍّ منهما حبكة درامية مطلوبة، إنها صداقة تشبُّث مُتبادَل. يحدث هذا بشكل أوضح مع من تطلب مهمتهم استعراضًا من البداية، مثل الشعراء والأدباء والفلاسفة والسياسيين.

لم أحب قط أدب الرسائل لهذا السبب. أعرف أن المرء يستطيع التعبير عن نفسه أكثر حين يفترض شخصًا بالقرب منه، وكلنا نوجه حديثنا إلى مُخاطَب ما، لكن أدب الرسائل المكتوبة من الأصل بغرض النشر يتكئ على الصداقة ليصعد مرئيًّا إلى الجموع، إنه استعراض بكل ما للكلمة من معنى؛ فالرسالة نفسها هي مجرد جزء من الرسالة، وغالبًا الجزء الأقل قيمة؛ لأن الجزء الأثمن هو «انظروا كيف أتحدث أنا وصديقي».

يقول سعيد أن حكمي هذا قاسٍ جدًّا، والأدق أن أدب الرسائل يحوي معنى آخر، وهو أنني لا أستطيع أن أتحدث إلا بواسطة ومن خلال ومع صديقي. إنها الكتابة وقد تواضعت واعترفت بأصلها كحوار، إنها الشكل الأكثر تواضعًا للكتابة؛ لأنها تنزل طواعيةً من المنصة، وتجلس في مقهى. ويقول إن المصطلح الأنسب هنا هو أدب الاحتفاء بالصداقة، وليس الاستعراض؛ فالاستعراض يفترض ضمنيًّا أنني أقول للناس انظروا كيف هي موهبتي في هذا أو ذاك، يجب عليكم الانبهار لأنكم لن تستيطعوا تقليدي، بينما الاحتفاء يقول انظروا كم أنا سعيد الحظ، إنني صديق لهذا الرجل، لهذه المرأة، إنه يتحدث معي، «أنا مش عارف إزاي دا حصل بالظبط، لازم تجربوا الموضوع دا». هي ليست استعراضًا، بل دعوة لنقترب بعضنا من بعض، لنتحدث معًا.

٨٣

بوسع الوحدة أن تُفقد أي إنسان رصانته، تجعله ينتقل هنا وهناك، محاولًا صنع صداقات مُتعجِّلة وغير قابلة للتحقق بسبب تعجُّله ذاته. هذا صحيح، لكن بوسع القلق الدائم أن يُفقد الإنسان نفسه؛ فمقدار معين من التفاعل المسرحي مع العالم يمكنه أن يخبئ هذا القلق داخله، إنه موجود ومُعترَف بوجوده من أصدقائه، لكنه بعيد، خارج ما يحدث دائمًا.

وإذا كانت الوحدة تحفز في الآخرين رغبة الهرب، فالقلق هو رغبة المرء نفسه في الهرب من نفسه. عند حد معين من الصداقة، يمكن للمرء أن يعاتب أصدقاءه، يخبرهم بوحدته، لكن القلق هو وحدة الذات، أمام أناها العُليا، فشلها في تلبية طموحاته، الخوف من أننا لسنا كافين بمعاييرنا الشخصية، أي إنه إذا كانت الوحدة تجبرنا على البهلوانية الاجتماعية، فالقلق يجبرنا على البهلوانية في وضع الثبات.

يجلس أصدقائي ويضحكون، لكن أريد أن أهرب. تتحدث ماريهان حديثًا حميميًّا طويلًا، أريد أن أهرب. يعلو صوت لمياء بالشكوى «إنت مش موجود»، أعرف، لكني أريد أن أهرب. أجلس هادئًا، أحترق من الداخل، وأدير نقاشًا طويلًا يبدو من الخارج أنه حوار صريح وصادق، لكني لا أقول أي شيء له أي قيمة عندي. مشتت بين حواري الداخلي والحوارات الخارجية، الأصوات تتداخل بعضها مع بعض، قدماي مُخدَّرتان، أنفاسي تختفي، أصرخ، وأكتم صوت صرختي؛ حتى لا ننفضح.

الوحدة هي الرغبة في اللجوء إلى مكان ما، والقلق هو الرغبة في الاختفاء، أصرخ.

تسألني ياسمين، مرة تلو الأخرى، إن كنت بخير، أتردد بين رغبتي في اللجوء، ورغبتي في الهرب. حمار عطشان وجعان بين كومة البرسيم وجردل المياه. أضحك؛ لأنني كلما فكرت في هذه المعضلة أتذكر أمير، أحد أصدقاء

الطفولة، ورأس حربة فريق المدرسة. كنا نلعب في مدينة أخرى، في بطولة مدرسية، ألعب دائمًا في مكان المدافع الأيمن، أرسل إليه كرة عالية من أول الملعب، يحتار أمير بين استلام الكرة بيساره والتحجيز بجسده على المدافع ثم التصويب، وبين مغالطة المدافع والجري إلى الناحية الأخرى من الكرة واستلامها من خلف المدافع. يأخذ القرارين معًا، يفسخ رجليه، كلٌ منهما ممدوة إلى أقصاها، يصرخ من الألم، ونضحك.

٨٤

إذا صدقنا التحليل النفسي فنحن حين نحكي حكاية ما تأخذ حكايتنا طريقًا واضحًا، حتى نقترب مما نريد أن نحكيه فعلًا، ننعطف فجأة، بشكل مفضوح للمنتبه، ومهمة المحلل النفسي دائمًا أن ينتبه إلى أثر هذه الانعطافة، وتدوينها، ثم دفعنا برقة تجاه الطريق الأصلي.

يفترض هذا الأمر أننا بشكل لا واعٍ نعرف ممَّا نهرب، يشد المحلل أيدينا للمواجهة، في يقين أن المواجهة هي الحل دائمًا. هذا هو معنى جملة علاء خالد أن «الحكاية علامة شفاء الراوي». بوسعك الآن أن تخمن أنني بالفعل أختلف مع ذلك، ليس فقط لأنني أشك أننا حتى بشكل لا واعٍ نعرف دائمًا ما نريد حكايته، بل لأنني أشك حتى إننا إذا كنا نعرف ما نود حكايته فإن المواجهة هي الحل.

هدير مثلًا تحكي أجمل قصة حب فاشلة في العالم، لكن إذا انتبهت فهي لا تحكي أي شيء تقريبًا، هي تنعطف فقط، لكن ما هذا الذي تريد أن تحكيه؟ ما تحدسه وتريد لمسه عن طريق الحكاية. شكي يتعلق أساسًا بإذا ما كان هناك شيء أصلي، حب أصلي، عنف أصلي، شيء يجب العودة إليه من أجل الانطلاق مجددًا.

يرى سعيد أن التحليل النفسي هو أطول حرب تشنها البشرية ضد النسيان، حرب تسلبنا الحق في ذوات جديدة، تربطنا في ماضٍ لا نستطيع

الهرب منه. هي حرب ضد الانعطاف، ضد اللعب، ضد التجربة، إنها بشكل ما امتداد للحدود المنتصبة بين الدول. يقول لك التحليل النفسي: هذا هو أنت، هذا موطنك، لا يمكنك المغادرة دون أن تحل مشكلاتك مع السلطات أولًا، وخارج موطنك، أنت دائمًا في المكان الخاطئ، مؤقت، ولا تتمتع بأي حقوق، كل ما هو جميل وأصلي في مكان ما عليك أن تتوقف عن الهرب منه.

في المقابل، في فيلم «سينما باراديسو»، يخبر ألفريدو، عامل السينما القديم الذي فقده بصره في حريق، سلفاتوري، تلميذه العاشق للسينما ولغرفة عرض الأفلام منذ صغره، والذي أنقذ ألفريدو من ذاك الحريق نفسه، أن عليه مغادرة مدينتهم الصغيرة التي لن يحقق فيها شيئًا، ويحذره: «لا ترجع، لا تفكر فينا، لا تنظر إلى الوراء، لا تكتب إلينا، لا تغرق في الحنين إلى الماضي، انسَ كل شيء، إن حدث وعدت فلا تأتِ لزيارتي، لن أدعك تدخل منزلي، هل تفهم؟ مهما يكُن الذي ستفعله أحب عملك، بالطريقة نفسها التي أحببت بها غرفة عرض الأفلام عندما كنت صبيًّا متحمسًا».

بينما يقول التحليل النفسي: تحلَّ بشجاعة العودة، يقول الفيلم: تحلَّ بشجاعة الهرب.

يفعل سلفاتوري ذلك، يغادر، لا يعود، يغير اسمه، يصبح مخرجًا شهيرًا. ولكن لأن ما يقوله الفيلم قاسٍ أكثر من قدرة الفيلم على التعايش معه حتى النهاية، يتراجع جزئيًّا، يعود سلفاتوري فقط حين يموت ألفريدو. يشاهد سلفاتوري مدينته القديمة، أصدقاءه، حبيبته السابقة، يلتقيها، يخبرها: «حتى بعد مرور السنين، وفي جميع النساء اللاتي عرفتهن، أبحث عنك. لقد حققت النجاح في عملي، وكنت محظوظًا، ولكن شيئًا ما كان يبقى مفقودًا».

هل هناك نسخة من الحياة لا تشعر فيها أن شيئًا ما مفقود؟ هناك دائمًا شعور بالفقد؛ لأنه ببساطة شعور صحيح، كل اختيار في الحياة يستبعد خيارات أخرى، الأمر بهذه البساطة، لا يمكن مراوغة الفقد، الحياة فقد متتالٍ، وامتلاك مؤقت.

يكتشف سلفاتوري أن الرجل العجوز ألفريدو بدوره كان قد أخبرها أن تنسى سلفاتوري وحبها له. تقول إيلينا، حبيبته، وقد شاب كل منهما، إنها تفهم الآن لماذا فعل ألفريدو ذلك، تقول لسلفاتوري: «لو كنت اخترت أن تكون معي لما كان باستطاعتك قط أن تصنع أفلامك، سيكون هذا عارًا. إنها رائعة، لقد رأيتها جميعًا. لكن ما كان عليك أن تذهب وتغير اسمك، كان يجب أن تُبقي على اسمك».

يُبرَّر الهرب في نظر الحبيبة القديمة/ الأصلية أنه كان بهدف أسمى، تحقيقًا لنبوءة الأعمى، الذي فقد البصر، وامتلك البصيرة. النسيان جريمة، ويجب أن يكون لها ما يبررها، لكن إن كانت غرامة الهرب هي الحنين، فأظن أنها غرامة عادلة، وغير قاسية، وهي غرامة ندفعها في كل الأحوال. وليس بعيدًا عن كل هذا، يحكي محمود درويش، متخيلًا نصيحة كان يحب أن تنصحه أمه بها:

تزوَّج أيَّة امرأة من

الغرباء، أجمل من بنات الحي.

لكن، لا تُصدِّق أيَّة امرأة سواي.

ولا تُصدِّق ذكرياتك دائمًا.

لا تحترق لتضيء أمَّك، تلك مهنتها الجميلة.

لا تحنَّ إلى مواعيد الندى.

كن واقعيًّا كالسماء.

ولا تحنَّ إلى عباءة جدِّك السوداء،

أو رشوات جدَّتك الكثيرة،

وانطلق كالمهر في الدنيا.

وكن مَن أنت حيث تكون.

واحمل عبء قلبك وحده ...

وارجع إذا اتّسعت بلادك للبلاد وغيّرت أحوالها.

٨٥

في لحظاته الآملة، يقول سعيد إن الأصدقاء يشبهون الأمهات في أمر ما؛ تجد الأمهات الأشياء الضائعة دائمًا؛ لأنها ببساطة من تقوم برعاية المنزل، وهي من تنتبه إلى عاداتنا التي لا ننتبه إليها، تعرف أن ابنها الأصغر يميل حين العودة من المدرسة إلى رمي حقيبته فوق الدولاب، الأخ الأكبر يميل إلى ترك ملابس اليوم التالي مُعلّقة في الحمام، بينما يظن هو أنه يميل إلى تركها فوق السرير، البنت الوسطى أميَل إلى أن تترك كتبها في أقرب مكان يمكنها أن تجدها فيه حين تستيقظ، ليس بجوار سريرها كما تظن، ولكن في المطبخ، حين تُحضِّر القهوة لنفسها.

يقول سعيد إن الأصدقاء في مرحلة ما يُكوِّنون هذه المعرفة بأصدقائهم، تعلم حين يتحدث محمد عن العمل أنه يخبئ المعنى في شجاره مع المدير، وحين تتحدث مروة عن رغبتها في السفر أنها تخبئ أزمة مرض أبيها، وهكذا. فلسنا فقط أشخاصًا لا يستيقظون من الحلم يحادثون أشخاصًا لا يستيقظون من الحلم، أيضًا نحن أطفال غير مرتبين نضيع أشياءنا في الحلم، نحاور أطفالًا يحلمون ويضيعون أشياءهم. ويحب التحليل النفسي أن يقوم هو أيضًا بدور الأم التي تجد هذه الأشياء، تعرف بالطبع أنني أختلف مع ذلك، لأنني لا أرى أن هناك بالضرورة أشياء ضائعة نبحث عنها، مثلما ليس هناك معانٍ نحاول إيصالها، نحن أحيانًا نريد أن نبحث، مثلما نحن فقط نريد أن نتحدث.

ودعني أزيد الأمر تعقيدًا؛ نحن الآن شبه أصدقاء افتراضيين، وتعرف أنني أحب أن أُركِّب الأشياء بعضها فوق بعض، نحن نتحدث عن طريق لغة مُشفَّرة بالنسبة إلينا وإلى الآخرين، ونسمع حديثهم مُشفَّرًا أيضًا. وبجوار ذلك التشفير الحتمي، هناك تشفير إرادي؛ إذ نُشفِّر بإرادتنا ما لا نود أن نتحدث عنه صراحة وما لا نحب أن يتمكن من فك شفرته سوى أشخاص معينين، نحن أصلًا لا نعرف من هم حين نتكلم. أضيف إلى كل هذه المدعكة من التشفير الحتمي والتشفير الإرادي تشفيرًا أكثر وضوحًا، وهو التشفير القسري، أي الذي ليس نتاج بنية اللغة نفسها ولا نية الإرادة، هو تشفير بحكم غريزة الحماية لأنفسنا، نحن غير مسموح لنا بقول أشياء كثيرة لأسباب تتخطى إرادتنا، أشياء كثيرة تُشكِّل هويتنا، وتأخذ جانبًا ضخمًا من أوقاتنا. ولأننا حين نريد أن نتكلم، نريد أن نظل نتكلم، نرضخ لهذا التشفير الإجباري، ونقول ما هو شبيه بما نود قوله، دون أن يكون ما نود قوله.

يقول سعيد إنه إذا كان المجاز طريقة لبلوغ ما لا يمكن بلوغه بالبديهة، فالمجاز غالبًا لا يقوم بدوره هذا، إنه لا يحملك إلى الجانب الآخر فعلًا، هو فقط يطمئنك أنه سيبذل أقصى جهده، دون وعد ضروري بالوصول. المجاز ليس مجرد جسر إلى مكان، هو في ذاته المكان الذي نود أن نبلغه، هو بيت المعنى، مكان حصارنا الذي نختاره بإرادتنا، لأننا ببساطة لا نريد أن نسقط، ونعرف أننا لا يمكننا أن نعبُر، ولا نريد بأي شكل العودة إلى الوراء.

٨٧

أسير وسعيد في شارع طويل نعرفه جيدًا. يميل عليَّ ويخبرني أن لديه سرًّا، أضحك. لم يكُن من عادته أن يبدأ حكايته بهذه الطريقة، كنا مقرين ضمنيًّا بالمشاركة في الأسرار، إذن كان تصريحه هذا يدل على أنه على وشك أن يقول شيئًا لم يكُن داخلًا ضمن اتفاقنا الضمني الطويل. أقول له ذلك طبعًا، يضحك متصنعًا اليأس من موهبتي في كسر سلاسة الكلام. يقول لي إن سلاسة أي كلام ترتبط نظريًّا باتفاق ضمني على الأقوال الروتينية؛ فحين يخبر شخص شخصًا آخر أن لديه سرًّا، يجب أن يسأله الآخر إن كان يجب أن يحكيه له، فيخبره الأول بتردده، فيطمئنه الثاني أن سره في مأمن، حينها يبدأ الثاني في الحكي.

أرد عليه أن كسري للسلاسة النظرية المُتوقَّعة للكلام هو جزء من روتيننا معًا في الحديث، سلاستنا الخاصة، أنني بهذا ضمنيًّا أطمئنه أنني الشخص نفسه الذي يعرفه، وفي حالتي الذهنية والنفسية نفسها التي اعتاد عليها، أنني لا أتغير في مواجهة السر، السر هو الضيف هنا، هو الغريب، لكننا نظل الأصل، كأصدقاء. يقول لي إن الأحاديث غالبًا ما لا تكون بهذا الوضوح التي أتحدث به؛ فنحن ننتبه إلى الأقوال الصحيحة الذكية فقط بشكل رجعي. أخبره أن هذا ببساطة ليس صحيحًا، وإلا كيف تتعالى الضحكات دومًا إن لم يكُن بوسع الناس ضبط توقيتات نكاتهم جيدًا؟

يسألني إن كنت أشعر بشيء غريب، أرد بالنفي. يستند إلى أحد جدران الشارع، فيسقط الجدار. يخبرني أن المدينة بأكملها مجرد ديكور لفيلم سيُصوَّر قريبًا، وأننا ضمن الكومبارسات الخشبية التي بدؤوا في استعمالها تقليلًا لتكلفة الكومبارسات البشرية، أضحك. يقول لي أنت تضحك بالفعل، لكن هل تسمع ضحكك؟ دعك من هذا، انظر جيدًا، أليس غريبًا أن هذه المدينة كلها ليس بها إضاءة إلا على الجزء الذي نقف فيه؟ منذ متى نسير أنا

وأنت ونحن نتكلم؟ ساعتين ربما، انظر حولك، نحن لم نقطع خطوة واحدة. ركِّز، هل يمكنك أن تسمع صوتك؟ ثم يا راجل كل هذا الكلام عن اختلاف طرقنا في الحكاية وفي تفسير العالم، ألم تنتبه فعلًا عندما قال فادي أننا نتحدث بالطريقة نفسها؟ لم تنتبه إلى أننا نمسك بأكمام قمصاننا بالأسلوب ذاته؟ لنا التجارب العاطفية نفسها بالضبط مع اختلاف الأسماء؟ آراؤنا متشابهة لكنها مختلفة قليلًا كأننا شخص يكلم ذاته؟ هل نسيت فعلًا أننا شخص واحد؟

أستيقظ مرعوبًا من الحلم، أفتح أنوار الغرفة، أخرج إلى الصالة، أخرج إلى الشرفة، الساعة السابعة صباحًا تقريبًا، وكطفل يريد أن يبقى في الضوء أنام في مكاني.

٨٨

تسأل بسنت كلًّا منا عن أكثر صفة يحبها في الناس.

بسرعة يرد سعيد: الوفاء؛ الوفاء يتيح لك أن تسير في العالم بشعور أنك محمي، وغير قابل للانكسار. يقول فادي إنه لا يعرف الكلمة الدقيقة، لكنه يحب الأشخاص الذين يمكنك دومًا أن تعرف مزاجهم دون أن تُضطَر إلى نزع أقنعتهم واحدًا تلو الآخر، هذا الوضوح، أو الشفافية، أو القدرة على الانكشاف، هو ما يتيح لك أن تأمن لشخص ما. تقول بسنت إنها عن نفسها تحب هؤلاء المستعدين للتضحية؛ ليس لأنهم يسبغون حمايتهم علينا، ولكن لأنه لا معنى أن يختارك شخص ما ومعياره الوحيد هو المكسب، الاستعداد للخسارة، هو ما يجعل أي علاقة إنسانية أكثر من مجرد حسابات.

تقول نسمة إنها تفضل العزيمة؛ فمهما كان تأثير كتابات التنمية البشرية في المصطلحات الإرادية، فإن شيئًا يبقى صحيحًا في أن العزيمة - تضحك- «زي ما بيقول سعيد»، بصفتها إرادة تحقيق الإرادة، هي كل ما نملكه لنكون

شيئًا آخر غير ما تُحتِّمه علينا ظروفنا الأوَّلية، إنها المتغير الوحيد بأيدينا. يقول مجدي إنه الحنان؛ لأننا جرحى نحتاج إلى الرعاية. أقول إن رهاني كله على الكرم. تقول مروة إنه الانطلاق، تحب الأشخاص المنطلقين؛ لأن من دونهم نظل سجناء مواطن أقدامنا. تقول هبة إنها المسؤولية؛ لا يمكن أبدًا مصادقة أحد لا يمكن الوثوق بإحساسه بالمسؤولية. تقول يسرا إنها تشعر أننا اخترنا كل الاختيارات بالفعل، وهي لذلك ستعود إلى البديهيات، ما تحبه في أي شخص أن يكون موجودًا. يصفق سعيد، يضحك.

يرى سعيد أن ما يجعل إصلاح ما تكسَّر في العلاقات مستحيلًا أن شرط إصلاحها هو القبول المُتبادَل بحدوث سوء التفاهم. ومع أن سوء التفاهم هذا يبدو أوَّليًّا وبديهيًّا، فإن كل محاولة لفهم ما حدث تجعلنا نتخيل أنه كان حتميًّا، ومن ثم مُتعمَّدًا (وهما أمران مختلفان تمامًا).

أفكر في ذلك بعدما أقرأ رسالة لمياء الطويلة. تعتذر بأنها كانت بالفعل مشغولة، وأنها تعلم أنني سأميل إلى المبالغة في تحليل هذا الاعتذار، كما في تحليل انشغالها الأول نفسه، وتقول لي إن بعض الأشياء تحدث دون سبب.

أعرف أنها محقة، لكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا. كنت أحتاج إليها، ولم تكُن هناك. ومهما كنت مُتفهِّمًا وذكيًّا فإن شعوري سيبقى هو نفسه. لقد تعلمت شيئًا ما، شيئًا قد يكون خاطئًا تمامًا، وهي أنها لن تكون هناك. أقول لها كلامًا مثل هذا، فتخبرني أنني بعد كل طريقنا معًا يجب أن أعرف أننا سنبقى أصدقاء إلى الأبد، أغضب، أخبرها أنني لا أفهم الصداقات التجريدية العديمة المعنى، صداقات الـ «تمام، وإنت؟ تمام»، لا أكرهها، أنا فقط لا أفهم معناها.

نلتقي، ندور حول أنفسنا، تخبرني أننا يمكننا أن نصبح أصدقاء دون أن نتحدث كل يوم، أخبرها أنني فعلًا لا أفهم ما تقوله، هي تعرف تمامًا أنني لا أحب أن أضع نفسي في ظروف تُحتّم عليّ أن أحسب كل كلمة، وحركة، وإشارة، فهل عليّ الآن أن أحسب المسافة الزمنية المناسبة منذ آخر مرة تكلمنا فيها حتى أحدثها ثانية؟ ليه قلبة الدماغ ووجع القلب دا؟

نصمت، أفكر في قول أشياء مؤذية ولا أقولها، وأظن أنها تفعل مثل ذلك. تلتقي أعيننا ونبتسم، ها هي صداقة حقيقية نتخلى عنها طواعيةً. تضحك وتقول لي إنني أصبح خبيرًا في الانفصال السلس، في العلاقات والصداقات، أقول لها إنني أحب قصيدة لناظم حكمت يقول فيها:

بعض الناس يعرفون كل شيء عن النباتات،
بعضهم عن السمك،
وأنا أعرف الفراق
بعض الناس يعرفون أسماء النجوم عن ظهر قلب،
وأنا أحفظ الغياب عن ظهر قلب.

تقول إنني أخبرتها بهذا حين التقينا أول مرة، أقول لها إنني دائمًا ما استغربت إلى أين ستذهب معلوماتنا الدقيقة غير الصالحة للاستخدام عن الآخرين، وإنه كان منطقيًا أكثر لو كان كل ما نعرفه عن شخص ما يختفي باختفائه.

تخبرني أنني قلت هذا أيضًا سابقًا، وتقول لي إن هناك شيئًا سوداويًا في معرفة أي شخص آخر، وهو أنك لن تستطيع أن تكون جاهلًا به مرة أخرى، وإنني إذا كنت أرى أن أجمل ما في الصداقات أنها تجعلنا مرئيين، فأسوأ ما فيها أنها تجعلنا مرئيين إلى الأبد، حتى في الوقت الذي نتمنى فيه عكس ذلك.

تخبرني عن صديقها الجديد، أحكي لها أشياء عن ماريهان، وببعض التردد أخبرها عن ياسمين، تقول لي: «كيف لن نستمر كأصدقاء ونحن نعرف جيدًا

كيف نتكلم بعضنا مع بعض؟»، أسفسفط بأشياء عن أننا يجب أن نكون دومًا مستعدين للخسارة، تتعقد العلاقات لأننا نظن أننا قادرون على كسب كل شيء دون أن نخسر ولا نضحى، يمكننا أن نتجنب خسارة ما لا يعني لنا شيئًا، وهذه الصداقة تعني لي شيئًا لكي أخسرها. تضحك وتتنهد وتقول إننا غالبًا ما تكون حواراتنا الأكثر حميمية هي حوارات ما بعد الاتفاق على الانفصال، كأننا تخلصنا من عبء ما، وأصبحنا خفيفين الآن، مجرد غرباء. أبتسم، وأقول: «مش غرباء، بس على وشك أن نكون، آخر بق في الكاس». تضحك مرة أخرى، وتقول لي إن «سعيد كان عنده دايمًا ملاحظة عليك إنك أيًّا كان النقاش واصل لأي مرحلة لازم ترد، حتى لو هتقول أي كلام وخلاص». أوشك أن أقول لها «بالعكس تمامًا»، أنتبه إلى المفارقة، وأضحك.

٩٠

في بالي قصيدة لا أقدر على تذكُّرها عن مجموعة أصدقاء يتساقطون ويقومون في أوقات مختلفة، ويقول الشاعر إنهم في سقوطهم وقيامهم يشبهون من يؤدون رقصة جماعية على موسيقى لا نسمعها.

أقول لسعيد ذلك، فيخبرني أنه لا يذكر أبدًا قصيدة مثل هذه، وربما كانت القصيدة في بالي قصيدة فعلًا، أتتني عن طريق الخطأ، ولأنني لست بشاعر فهي لن تُكتَب أبدًا، ويحكي لي بدوره عن رواية أو قصة قصيرة قرأها وهو مراهق، تحكي القصة عن صديقين حسدهما الملك على صداقتهما فأمر ساحره أن يصنع لهما تعويذة تجعلهما لا يلتقيان مرة ثانية أبدًا.

يعلم الصديقان ذلك، فيحاولان اللقاء بشتى الطرق، يغيران اسميهما، يغادران دون اتفاق أرض الملك، يهيمان في الأرض، تشغلهما مغامرات مكثفة بإمكانها أن تنسي المرء أن يكون، وفيما كلٌّ منهما في أرض بعيدة، عجوزان، يبصر أحدهما الآخر، يحاولان التذكر، لكن شيئًا ينفلت منهما، لم يعودا بعد

الآن بطاقة عناد الشباب نفسها. يقول الأول للثاني: «لم يكُن ممكنًا قط أن ننتصر». يقول الثاني للأول: «لم يكُن ممكنًا أن ننهزم». يضحكان. يضحك.

أقول له إن هذه القصة ليست من رواية ولا حتى من مجموعة قصصية قرأها في صغره، هي تحريف واضح وسهل لمشهد من أحد أفلامه المُفضَّلة، وبإمكانه أن يختار أن أقول له اسم الفيلم أو أسكت عنه، وهكذا يظل بطل القصة في مسافة متساوية بين رواية لا يذكرها وفيلم لا يذكره، ضائعين في الفراغ، غير قادرين على التلاقي ولا الافتراق حتى يحسم هو أمر انتمائهما.

في القصة القصيرة الشهيرة للكاتب البولندي كوالسيكي «يمين، يسار، يمين»، يقع البطل في ورطة ضرورة مساعدة إحدى صديقاته بعد قتلها لعشيقها، ورطة لأنه لا يريد أن يساعدها، وهو في الوقت نفسه لا يستطيع ألا يفعل. القصة كلها تدور بينما يجري الاثنان حاملين جثة عشيقها، ومن هنا يأتي العنوان «يمين، يسار، يمين».

وطوال القصة وهو يحاول معرفة إذا ما كان مُضطَرًّا لمساعدتها. قبل ثمان سنوات، رفضت إقراضه بعض المال وهو يمر بضائقة. مضى ذلك إلى حاله. التقيا بعدها بفترة وأصبحا عشاقًا، ثم انفصلا واتفقا على الصداقة. بسبب الاتفاق الأخير عليه مساعدتها، لكنه ما زال يحمل ضغينة أنها لم تساعده منذ أمد بعيد. يُوبِّخ نفسه أنه غير قادر على تجاوز ذلك الحدث التافه، الحدث التافه الذي كان أيضًا سبب نهاية علاقتهما دون أن يخبرها بذلك. كانت صداقتهما راسخة وقديمة، ومرَّا بكل شيء معًا، لكن هذا كله كان دائمًا بين قوسين؛ بسبب ذلك الموقف القديم. يقول إن انتهاء الصداقة وانتهاء الحب هما أمران سحريان تمامًا كالصداقة والحب، ينكسر الأمر فجأة، موقف عادي وتافه، كأنه تعويذة مضادة، يُنهي الساحرية المدهشة لهذه الصداقة.

يجري، يتذكر أنه لا يظن أنها كانت موجودة في أي وضع صعب يتعرض له، يندهش أنه لم ينتبه إلى ذلك. يجري، يفكر كيف يمكن أن يفوتنا ما هو واضح، ليس مرة أو اثنتين، بل يوميًّا ولمدة سنوات طويلة. يجري، يفكر أنهما بحاجة إلى التخلص من الجثة أولًا، ثم بعدها فليتصرف. لكن هذه الجثة ستظل تربط بينهما إلى الأبد، لقد تورط فعلًا. يجري، يفكر أنه في هذه اللحظة لا يعرف تمامًا من هذا الذي يحمل الجثة ويجري بها ومن هذا الذي يفكر.

تقع الجثة، تُضاء بعض الأنوار في البيوت المجاورة. مطاردوهما، الذين لم نعرف قط من هم، يقتربون منهما، يتذكر خريطة المدينة، كان يجري في هذه المنطقة بالضبط منذ عشر سنوات، يتذكر ذلك فجأة، في هذه المنطقة بيت صديق له، يتذكر أنه كان يقف في المكان نفسه تحديدًا وصديقه يصف له الطريق في الهاتف: «يمين، يسار، يمين، ثم اصرخ باسمي، وسأسمعك». يترك الجثة، يمين، يسار، يمين، لا يذكر اسم صديقه، يصرخ باسمه هو، تُضاء إحدى الغرف، ولوهلة قصيرة، يبدو أكيدًا أنه قد نجا.

٩٢

أعرف بالطبع الجاذبية المُصطنَعة للحديث مع الغرباء، الاستثمار الدرامي والروائي في أن نلتقي أحدهم مصادفة ونحكي له كل شيء؛ حتى نتخفف من أثقالنا. هذا الاستثمار هو أيضًا ابن للتحليل النفسي، فكرة أننا نُشفى حين نتمكن من تذكُّر كل الحكاية، ثم نتمكن من حكيها دون أن نلجأ إلى الهرب، إلى الانعطاف في هذا الشارع أو ذلك، خجلًا أو خوفًا من ماضينا، لكن أشك في هذه النظرة إلى العالم التي ترى أن الألم الذي نحمله هو نتيجة لخطأ عقلي قمنا به ذات مرة متسرعين لحماية أنفسنا، ثم عمَّمناه على كل تجربة مشابهة جديدة، خطأ ينبغي أن نصححه؛ لأنه لا يصلح لكل المواقف، ولأننا حين ندرك العالم بشكل سليم، سيمكننا التعامل معه مباشرةً، لن نكون سعداء بالضرورة، لكننا سنكون ذوي فاعلية.

١٥٦

الفاعلية هي كلمة السر في العصر الحديث، وليس مصادفة أن تكون أحد أوضح النصائح بشأن توقيت الذهاب إلى الطبيب النفسي هي أن نذهب إليه حين نفقد فاعليتنا، لا نستطيع إكمال مهامنا اليومية بالشكل الطبيعي، وهي أيضًا ليست نصيحة غبية؛ فهي على الأقل أذكى من النصيحة اليسارية الكلاسيكية أن الخطأ يكمُن في العالم، وعلينا أن نغيره، لا أن نغير أنفسنا. ليست أذكى فقط لأننا لن نستطيع تغيير العالم دون استعادة فاعليتنا، ولكن لأننا في الأغلب أقل بصيرة وأكثر عشوائية في تدافُعنا الجماعي من أن تصيب سهامنا أهدافها. وخفض سقف الطموحات هذا، أو على الأدق، الارتكان إلى الأهداف القريبة الممكنة هو شيء أكثر قابلية للتقييم من أي أحلام أخرى.

يوجد شيء جميل في ثقافة التطبيع مع حقيقة أننا أكثر هشاشة وأكثر قابلية للعطب من التظاهر الغبي بالقسوة، أو من الاستناد الأبله إلى سلسلة من الحظوظ العشوائية لسلب الآخرين «قيمتهم» لأنهم لم يقف الحظ في صفهم؛ فأي شخص تجاوز التمركز المراهق حول ذكاء الذات أو مواهبها الخارقة، وتمكن فعلًا من رؤية الآخرين، يعرف أنه لم يكُن قط أذكى ولا أقوى ولا أشجع ولا أكثر تخطيطًا وعزمًا من الآخرين، هو ليس محظوظًا تمامًا طبعًا، لكن الحظ، الموقع الطبقي، السن المناسبة في لحظة ما، نصائح أصدقاء ما في أوقات حاسمة، الصعود التاريخي لأفكار معينة تخدم هذه التموقعات نفسها، هي ما يحسم الأمر كله.

هذا الحظ نفسه، التموقعات العشوائية الخاطِئة، هي ما يصيب الآخرين بالعطب. يشبه الأمر إنزالًا عسكريًّا في حرب كبرى، البعض، مهما كانت تدريباتهم أو ذكاؤهم، ودقة تنفيذهم للتعليمات، سيُقتَلون في النهاية، هذه حقيقة قاسية، لكنها حقيقة، ولا نملك تجاهها إلا أن نشكك في هذا التقديس الحديث للإنجاز، ليس بالضرورة لأن الكسل أو التواكل هو شيء أكثر إنسانية؛ فهو ليس كذلك، وفي الأغلب لن ينظر إلى هذا سوى أناس مُرفَّهين بالفعل، غير مُجبَرين على العمل الشاق لإنقاذ محض وجودهم، وليس لأن هذا الإنجاز مخالف لعصور قديمة هادئة رتيبة، بلا مشاغل، ولا ضغوطات، ولا طموحات

كبرى؛ فشخص جاهل تمامًا، أو مخادع، هو من سيدافع عن حجة مثل هذه.

في رأيي، نشكك في تقديس الإنجاز بصفته بوابة للقسوة والغباء، الغباء أن يكون هناك سباقات متتالية ضرورية لحفظ الوجود، ثم الاندهاش من أن وجود السباقات نفسها يُحتِّم وجود خاسرين؛ فمثل أي شيء جميل يحدث، يحدث نقيضه في الوقت نفسه، ندعي التطبيع مع هشاشة الإنسان وقابليته للعطب، ثم نقسو على من يخدعهم هذا التطبيع لإعلان هشاشتهم بالفعل.

٩٣

ثم هناك أيضًا قضية تتعلق بالصداقة؛ فسعيد يرى أن الصداقة في بعد من أبعادها هي تبنٍّ لأحد أنماط استعمال اللغة، ولهذا، بعد فترة معينة من الصداقة، تجد شخصين يتحدثان بالطريقة نفسها بالضبط، يردد أحدهما أفكار الآخر. يحدث ذلك تلقائيًّا ودون أن ينتبه الأصدقاء أنفسهم؛ فأفكارهم وطريقة حكايتهم وإشارات أيديهم في الحديث والألفاظ الأكثر تداولًا في لغتهم هي ابنة العِشرة والأحاديث المتطاولة، ولا يمكن تتبُّع نسبها إلى أحد دون الآخر. يشبه ذلك ما يحدث من انطباع اللغة الجسدية للأزواج بعضهم على بعض إلى الدرجة التي تخلق وهم أنهم يشبهون بعضهم بعضًا في الشكل بعد فترة.

ويختلف هذا عن أن يحاول أحدهم إدماج نفسه بالعافية في الشلة، عن طريق تقليد لغتها، ما يجعل أفراد الشلة يتوجسون وهو يرون أفكارهم تُستعمَل على لسان الآخرين، يشعرون بالتعرض للسرقة علنيًّا، بأنهم يُسلَبون أحد طرائقهم لإبهار الآخرين. بل ويحدث كثيرًا أن يأخذ أحدهم حكايتك لأنه رآها مرة تعجب الناس، يضايقك ذلك مهما كانت تفاهة الحكاية؛ فالحكايات أصلًا ليست بهذه الكثرة؛ لأنها بالأصل اختراع بشري لتخيُّل كيف يحدث الزمن. الحكاية منحوتة وليست الصخرة نفسها، ولكلٍّ منا على الأكثر سبع أو

ثمان حكايات مُفضَّلة نعيد روايتها كل جلسة، فيما تبقى بقية صخرة الزمن نفسها غير مُشكَّلة.

إنها تشبه أن تجد نفسك فجأة مواجهًا لخروج الناس من مترو رمسيس في ساعة الذروة في أحد أيام العمل، لا يمكنك أن تنتبه بالضبط إلى ما يحدث، وحين تقول: «كان المترو مزدحمًا جدًّا» فأنت تحكي شيئًا آخر تمامًا غير ما حدث؛ لأن ما حدث غير قابل للحكاية.

وعلى سيرة الحكايات، تتطلب الصداقات التسامح مع المبالغة الحتمية في حكاياتنا، مع ميلنا الأوَّلي إلى التحقق في الخيال، دون أن نجد أنفسنا مُطالَبين أمام المنطق بتفسير تهافُت القصة، بالطبع ما دام ذلك لا يتعدى مجرد الرغبة في الحصول على انتباه لحظي متحمس أو إثارة الضحك أو حتى مجرد اللعب بالكلمات، دون أن يتحول هذا الحكي المبالغ إلى أن نصدقه هو نفسه، نزوة صغيرة ليس إلا.

٩٤

يوجد شيء مراوغ في رغبتنا في الوضوح؛ أننا حتى لو أردنا أن نكون صريحين تمامًا مع أصدقائنا فذلك لا يعرقله فقط أن الإنسان لا يستطيع أن يفهم ذاته تمامًا إلا بالتفكير واللغة والرموز، ولكن لأننا دائمًا ما نتبنى شخصيات مُتخيَّلة لنا، مقتنعين بكون هذه الشخصيات هي نحن، تعريفات ذاتية متتالية، متغيرة.

مثلًا تقول مروة إنها منذ صغرها كانت مهووسة بالقراءة، وهذا ما يدفعها حديثًا إلى الكتابة. أو يقول سعيد إنه منذ صغره كان ميالًا إلى الاندفاع. وهذا بالطبع مجرد تنسيق للذكريات المناسبة للمعنى واستبعاد غيرها؛ فميله في الصغر إلى الاندفاع هو تعريفه الذاتي «الحالي»، وهو ليس بالضرورة خاطئًا، لكنه بالضرورة ليس تعريفه الذاتي «الصحيح»؛ فقبل ذلك كان تعريفه الذاتي

أنه كان ميالًا منذ صغره إلى التجريد وجيدًا في كل ما يتعلق بالرياضيات. التعريفان ليسا صحيحين ولا خاطئين، أقنعة مصنوعة على عجل وبارتجال للإمساك بشيء ما نشعر به الآن.

لكن هذه التعريفات كلها ليست «نحن» بشكل كامل، إنه مجرد لعب ومحاولات للاقتراب، ما يستدعيه ذلك أحيانًا من خطأ فج أو تشويه للذكريات لتصبح مناسبة بالقوة، ولهذا ليس علينا أن نحاكم أصدقاءنا على ضرورة الاتساق مع تعريفاتهم الذاتية، وهم من جهة أخرى يغضون النظر ونحن نرتجل في حضرتهم تعريفات جديدة، وينسون القديمة تمامًا، وفي المرتين يصدقوننا، وفي المرتين كل تعريفاتنا هي تسديدات من بعيد على المرمى، حتى لو أصابت إحداها المرمى فهذا لا يعفينا أبدًا من تسديدات جديدة، بل بشكل ما يحمسنا أكثر.

٩٥

تعلو أصواتنا فور أن نُولَد، نخلط حروفًا عشوائية في أفواهنا، يضحك الآخرون عليها، ندرك ذلك، لكننا نفك شفرة حديثهم بصبر وبسرعة. في غضون أعوام قليلة، نتمكن من التعبير عن احتياجاتنا برموز نصف مبعثرة ومجازات تسقط المعاني من عليها. يتمكَّن بعضنا -بعد سنوات- من تقسيم أصوات هذه الرموز بشكل رياضي دقيق لتعطينا موسيقى، آخرون يرتبونها لتصير حكايات، آخرون يعطوننا فلسفة. نتحدث إلى أشخاص لا يمكن عدُّهم، كلٌّ منهم تمكَّن من فك الشفرة أيضًا، لكنها على كل ذلك تبقى شفرة، وعلى كل ذلك نستمر في الحديث وفي الإنصات.

في هذا العالم المعقد الشفرة، نغزو العالم وحيدين في جماعات، نعبر خنادق وبحارًا، وندمر حصنًا تلو آخر تلو آخر، لنجد أنفسنا أمام حصون جديدة. وفي الأثناء، نفقد أحيانًا مهارتنا في التشفير، نضجر أو ننسى في خضم

التعقيد ما ينبغي تشفيره، فتصبح معانينا مكشوفة أمام الآخرين، في أوقات لم نُعِدّ أنفسنا لها، ونتمنى أن يجد الآخرون في هذا التعري المفاجئ فرصة للانكشاف المُتبادَل، وهدنة من حرب التشفير هذه، وليس مناسبة لإعلان انتصار عديم القيمة في معركة من حرب لا تنتهي.

٩٦

يتكئ أحمد على الأريكة بيمناه، ويبدأ الحكي. تتكئ يسرا على يسراها، تضع ساقًا على ساق، تقرب جسدها إلى الأمام، ثم تحكي. هبة تحكي وهي تجلس على الأرض، متكئة بظهرها على الأريكة. سعيد يحكي وهو يمشي، مهما كان ضيق المساحة التي نكون فيها، يحكي وهو يمشي، ليس مصادفة أن أغلب ما أتذكره مقتطفات من تمشيات طويلة، أغلب كلامنا معًا حدث ونحن واقفون، متجهون إلى مكان ما أو عائدون منه.

نهى هي الوحيدة التي أعرفها تحكي مثله بالطريقة نفسها، غير أن خطوتها أسرع، تهرول وهي تتحدث، إذا رأيتها مصادفة في الشارع فستعتقد أنها هاربة من شيء ما، أو أنها تجري لإنقاذ أحدهم. تخبرني أننا مهما بلغنا من الرهافة يوجد شيء قاسٍ في اجتماعيتنا وفي انطوائيتنا على السواء. ونحن اجتماعيون، نستخدم مهارتنا لرصد مواقع الآخرين الاجتماعية والفكرية من نظرة، من حركة، ما يمكن قوله وما هو ضروري التجاهل، في انطوائيتنا، نستخدم المهارة نفسها؛ لتطمين أنفسنا أن معرفة الناس ليس كنزًا نفقده، لأنه لا جديد.

وأنت تحادث نهى، يدهشك ذكاؤها، لكنك لا تعرف بالضبط ما أوحى إليك بذلك، تندفع في كلامها في كل الاتجاهات، تعتذر منك عن العشوائية. في المرة الأولى التي رأيتها فيها، أخبرتني أن علينا أن نكون أصدقاء، هكذا، وافقتها على الفور، أعرف أن في الأشخاص المندفعين والعفويين شيئًا مخادعًا؛ أننا نتصور

أنهم بالضبط كما نراهم ليس لديهم ما يخفونه، لكن هذا الشيء المخادع نفسه يعني أن لديهم أكثر مما نراه، الذي نجده مبهرًا كفايةً أصلًا.

كنا في تجمُّع ما، تجمُّع كنت أفكر أن أخبر من فيه بقصة ما، قصة لم أتمكن من حكايتها؛ لأنني دومًا ما اخترت أن أكون حسَن الحظ في علاقاتي وصداقاتي، اخترت ذلك بمعنى أنني اخترت ان تكون حكاياتي كذلك؛ أن يبدو القدر كما لو كان في صفي دومًا، لكني وقتها كنت غاضبًا مني ومن الأذى الذي أتسامح معه بدعاوى التفهم.

أخبر نهى أن عندي حكاية هي أسوأ ما حدث لي على الإطلاق، وأنها تكاد تنفجر في داخلي. هي ليست حكاية مأساوية جدًّا، مأساويتها تأتي من أنها تتناقض مع ما أحب أن أحكيه عن نفسي، كأنها كسر في القناع الذي أرتديه وأخشى أن أدل أحدًا عليه. أخبرها من البداية. تجلس ضامَّة قدميها بيديها بالضبط كما يفعل عبد الله، لكنها ترفع رأسها كأنها على وشك الهجوم على الحكاية. تغضب، تقاطعني، توافقني، تضع يدها على كتفي، تقترب، تصمت، ثم تسألني:

– ليه ما بتحبش تحكي الحكاية دي؟

– مش عارف.

– حاسس إنك لو حكيتها فدا اعتراف نهائي بيها؟

– ممكن، بس مش فكرة اعتراف نهائي، أنا حابب فكرة النسيان، لو حكيتها عمَّال على بطَّال هتبقى جزء مني للأبد، أنا حابب أتجاوزها.

– ما إحنا بنتجاوز المآسي بمواجهتها؟

– ما أعتقدش، أعتقد إننا بنتجاوز المآسي بانتهائها الموضوعي، بانتهاء نسختنا اللي عاشت المأساة دي، ودا مش حاصل في الحكاية دي، أنا ما أقدرش أتجاوزها لإنها موضوعيًّا مش منتهية، لكني مش عاوزها، تقدري تقولي إني لاجئ في أرض الدينايل بإرادتي الخاصة.

– ما إنت لو لاجئ في أرض الدينايل زي ما بتقول، ليه مش بتتجاوزها بقى؟

- لإني مجرد لاجئ، اللاجئ بالتعريف شايل مأساته معه، لما بيتجاوزها ما بيكونش لاجئ، لكن مش منطقي أروح أقول له ما تجمِّد قلبك يا عم وتواجه مآسيك، الكلام دا بيفترض إن كل شيء قابل للحل، وفعليًّا لأ، فيه ظروف موضوعية أكبر من قدراتنا على مواجهتها، واللجوء هنا هو أقرب خيار بيتيح النجاة كاحتمال، كخطة، حتى لو مش بيتيح النجاة نفسها.
- إنت عارف إنت عملت إيه دلوقتي لما حكيت الحكاية دي؟
- فيه احتمالين، إما أكون أفسدت أي صداقة ممكنة لإني بحمِّل صداقة وليدة ما لا تحتمله، أو بنيت أساس لصداقة عميقة، مبنية على الانشكاف الدائم. في الحالة الأولى مجرد إني أتكلم عنها كدا بحمِّلك حمل تاني، إنك لو مشيتي هحسِّسك بإنك هربتي، ودي مش طبيعتك، في الحالة التانية، الانكشاف الدائم دا ممكن يخلينا من أصدقاء المآسي، بنحكي مآسينا لبعضنا، إننا نلاقي حد ينفع يشوفنا وإحنا مش في أحسن حالاتنا، ودا خطير؛ لإنه ممكن يخلينا نأجل حل المآسي دي، ونفضل عاجزين عن الاستمتاع سوية بلحظات انفتاح العالم.
- إنت دايمًا صريح كدا؟
- لا، أعتقد العكس.
- وإشمعني دلوقت؟
- أنا زهقت.

٩٧

في قصته «منتصف»، يحكي الكاتب الألماني ذو الأصل التركي أركان ميرت عن شاب يبلغه خبر وفاة أبيه وأمه في رسالة على الهاتف وهو جالس مع أصدقائه يحكي لهم قصة انفصاله عن حبيبته فيروزة.

حبيبته هذه كلمة على سبيل المجاز، التقيا أقل من خمس عشرة مرة، في المرة الأخيرة، قالت له إنها تشعر أن مشاعرها لا تتصاعد بالمعدل الطبيعي لبدايات العلاقات، ولهذا تود ألا يكملا هذا المسار، وأن ينعطفا على الصداقة. يخبرها أنه لن ينعطف في أي اتجاه، بإمكانهما مغادرة الطريق مفترقين، لكنه ضجِر من الصداقة كخيار لحفظ ماء الوجه، وأنه إذا كان عليه أن يخسر عالمهما، فليخسره إلى الأبد دون الاستئناس بأطلال تُسمَّى الصداقة؛ لأن هذه ليست الصداقة. تخبره أن الصداقة التي تقصدها أنها تهتم به، وكانت تود لو ظل أحدهما في حياة الآخر. يشير برأسه علامة على اللامبالاة، بعدها بالضبط يبكي، وحين يفطن لفشله في دور القسوة، يبكي أكثر. ترتبك فيروزة، هي لم تعُد حبيبته، وهو يرفض صداقتها، فبأي صفة يمكنها الآن مواساته؟ تقول له عُدَّني غريبة، وكغريبة أنا مهتمة بهذا الرجل الباكي، يخبرها أنها لم تعُد غريبة أيضًا، وهذه هي المشكلة.

عن هذه المشكلة، يبدأ في حكاية قصص متفرعة غير مترابطة عن معنى الغربة، ويدرك، وهو يحكي لأصدقائه، أنه، وهو ما زال في حضرة فيروزة، عليه ألا يتوقف عن الحديث أبدًا؛ ففي اللحظة التي يتوقف فيها عن الحكي مع فيروزة، تصبح غريبة إلى الأبد، وفي اللحظة التي يتوقف فيها عن الحكي لأصدقائه عن حكاياته لفيروزة، يصبح موت أبيه وأمه نهائيًا.

بالطبع جاء في بالك أن الرواية إعادة صناعة لألف ليلة وليلة بشكل أو آخر. الكاتب يقول إن ذلك صحيح طبعًا وخاطئ تمامًا؛ صحيح لأنه صحيح،

وخاطئ لأن ألف ليلة وليلة هي نفسها جزء من الطبيعة الإنسانية التي تخاف أن تتوقف الحكاية، أي حكاية؛ لأن هذا يعني موتًا ما.

٩٨

لم أحكِ لنهى الحكاية التي كنت أود أن أحكيها، لكني حكيت لها حكاية الحكاية، بشكل ما أخبرتها عن خزانة أسراري، ثم فتحت لها خزنة أخرى، وأريتها محتوياتها. في هذه الخزنة الأخرى كانت حكاية لا أود كثيرًا أن أحكيها، لكنها ليست الحكاية بالألف واللام.

تعرف طبعًا أنني لا أظن -نظريًا- أن هناك حكاية بالألف واللام، لكن هناك «الحكاية» التي تفرض نفسها عليّ، لا أتوقف عن التفكير فيها، أعرف أنها تسوق تصرفاتي في الحياة، وأعرف أنني لن أحكيها أبدًا، حكاية ظلت صامدة أمام جلسات التحليل النفسي، وجلسات الأصدقاء الطويلة، وتمشيات سعيد التي لا تنتهي، وقدرة لمياء الخرافية على قيادة الحديث إلى المكان الذي تريد، وصراحة ماريهان القريبة من الوقاحة التي تستفزك لمضاهاتها، والأمان الذي توفره قدرة فادي على الانهيار دون اعتذار ولا خجل. أعرف أن حكايتها لن تغير آراء أصدقائي فيّ، وأعرف أنني لم أكُن مخطئًا، وأفكر في أن كلًّا من أصدقائي هؤلاء لا بد أنه نجح في تخبئة حكاية ما عني، حكاية تجعل معرفتي عنهم منقوصة دومًا، لا تجعلهم أشخاصًا مختلفين؛ فنحن حين ننعطف في طريق، ننعطف إلى طريق آخر، ثم إلى طريق آخر، لكننا نسير، وموجودون ما دمنا لا نزال قادرين على الانعطاف.

يقول سعيد إنه من الممكن معرفة الحكايات الناقصة، أو المُلفَّقة، ليس حين يتصرف أبطالها بشكل مفاجئ عن رسم شخصياتهم، بل حين يتصرفون تبعًا لها دائمًا، حين يتصرفون كأننا بالفعل قد فككنا شفرة شخصياتهم، أي إن الحكاية لا تكتسب مصداقيتها من قدرتها على الاستمرار في خطها الأصلي،

بل من انعطافاتها المفاجئة المتتالية؛ ليس لأننا هكذا نعلم أن هناك شيئًا لم يخبرنا به الرواي بعد، شيئًا علينا استنتاجه من التدقيق الجغرافي في لحظات انعطافه، بملاحظة الشيء المشترك الذي تحدث عنده الانعطافات؛ فهذا أمر نعرفه سلفًا وبالبديهة، بل تكتسب الحكايات مصداقيتها بالانعطاف نفسه؛ فكلما طالت الحكاية، يصبح احتمالًا أكبر أن نجد هذا الذي نهرب منه في إحداها؛ فالحكاية هي الطريق والانعطافة، المواجهة والهرب في الوقت نفسه.
أفكر في هذا وأنا أتذكر فدوى تقول لي:

- عاوزة أحكي لك حاجة.
- قولي.
- حاجة ما حكيتهاش لحد قبل لكدا.

كنت قد مررت عليها في مقر عملها، وندور الآن في الشوارع بالسيارة دون وجهة مُحدَّدة.

- الحكاية دي السبب إنك بعدتي عني وأنا وسعيد فترة؟
- لأ، بعدت لإنك غبي.

تبتسم ابتسامة هادئة جدًّا بشكل لا ينبئ عن الضحكة التي ستتلوها.

- إنتي عارفة إني كنت بحبك، مش كدا؟
- لأ، وإنت برضو عارف إن...
- عارف.
- حيوان فعلًا.
- عرفت متأخر، بعد ما بطَّلنا نشوف بعض، كنت شاكك طبعًا، وكنت بحبك، وكنت خايف.
- خايف من إيه؟
- خايف إنك لو قرَّبتي مني مش هتحبيني زي ما كنتي بتحبيني.
- طب ما كنت تجرب؟

- طب ما كنتي تجربي؟
- كنت خايفة، ثم أنا بجرب أهو، هجرب أحكي لك على الأقل.
- احكي.
- مش هتحكم عليا، مش كدا؟
- أدينا بنجرب أهو.
- طب اسمع.

قال لي سعيد ذات مرة إن كل الحكايات إذا مشت طويلًا كفايةً ستلتقي الحكيم؛ لأن كل حكاية تحمل هذا الشوق الأوَّلي جدًّا، وغير ممكن المراوغة للإرشاد؛ لأن كل الحكايات، دون استثناء، هي حكاية تيه. لكن لأنها لا تلتقي به فعلًا، فإنها تتيه أكثر، وإن الأمر يشبه من جانب السراب، الذي يخدعك، لكنه أيضًا من يجعلك تتحرك من مكانك. هو ليس أملًا كاذبًا، هو أمل مخادع، وبهذا المعنى فالحكيم هو من يقود الحكاية، وأن المفارقة هنا أن الانتباه إلى ذلك يقتل إمكانية ابتداء الحكاية، أصلًا.

- الحكيم كدا، أو الشوق ليه، هو طريقتنا في مرواغة الواضح.
- بالظبط، الأمور واضحة أصلًا، مش محتاجة لحكيم.
- واضحة لكن ثقيلة ومفجعة، بالشكل اللي يخلي التردد تجاهها، بانتظار الحكيم، هو أصلًا حسم لصالح انعدام الحسم.
- بالظبط.
- والحكايات مش بس كلها في انتظار الحكيم، لكن كمان من فرط الواضح، ما بيتمِّش الكلام عن الواضح؛ لإن من الغباء الكلام عنه.
- انتظار الحكيم هو الحكيم نفسه، بشكل ما.

- أنا كدا كدا تهت خلاص في المجازات دي.
- ما دام تهت يبقى انتظر الحكيم بقى.

١٠٠

- إنت واخد بالك إنت بتعمل إيه، مش كدا؟
- بعمل إيه؟
- بتتشعب في الحكايات والتأملات عشان تهرب من الحكاية.
- مش بالظبط، بتشعب لإن دي الطريقة الأكثر احتمالًا لصيد الوحش في الغابة، رسم حدود الحكاية من جميع الجهات، من غير أي هجوم، عشان ما يهربش.
- بس إنت بتقول إن فيه استحالة لحكاية الحكاية عشان إحنا غارقين في سوء التفاهم الناتج عن عجزنا عن فك شفرات مُعقَّدة ولا متناهية.
- إحنا عاجزين عن فهمها، بس ما زلنا نمتلك قرار المحاولة، رسم حدود الحكاية أو الغابة هو كل اللي أقدر أعمله، اللي عاوز يحاول يصطاد فعلًا يدخل الغابة، مفيش رمزية مُشفَّرة أنا بس اللي عارف إزاي أفكها وبقول للي بحكي له جرب تفكها كدا إنت كمان، أنا بقول إني مش عارف أفكها، وحاسس دا شيء أقل قابلية لسوء الفهم عن غيره، إني أشاور على الغابة وأنا فيها.
- ناوي تفضل تهرب كدا لحد إمتى؟
- مش بهرب، أنا بطارد حكاية بتطاردني.
- ناوي طيب تبطل لعب بالكلام إمتى؟
- مش بلعب بالكلام، أنا بتكلم عادي، الكلام بطبيعته هو اللي لعبي.
- ليه ما بتكمِّلش اللعب بإكمال الحكاية؟

- لإنها مش مكتملة، وإكمال أي حكاية هي أقدم خدعة قصصية في التاريخ، اللعب لازم يحافظ على جديته بعدم الانجرار لإنه يحقق لنفسه أمنياته، لو كمِّلتها يبقى أنا بوقف لعب.
- إنت عارف إنك لمض؟
- كانوا بيقولوا لي كدا وأنا صغير، بس أنا مش لمض، أنا بحب الوضوح، والكلام دايمًا غامض.
- طب وليه بتتكلم؟
- السكوت بنفس غموض الكلام، على الأقل كدا هكون مُعرَّض لسوء التفاهم، مش للنسيان.
- حاسس بإيه بالظبط دلوقتي؟
- غضبان وزهقان.
- يعني إنت قاعد تحكي لي من ساعتها عن الصداقة؟ دي حكاية عن الصداقة؟
- جايز، وجايز تكون حكاية عن الخوف، جايز تكون عن الأمل، جايز تكون عن الامتنان أو القلق، احتمال تكون عن السكوت الإجباري، واحتمال تكون عن الوحدة.
- ينفع أشوف إيدك؟
- أهي.
- مش فاهمة؟ إشمعنى دلوقتي؟
- هحكي لك.

دليل
غابة العلاقات

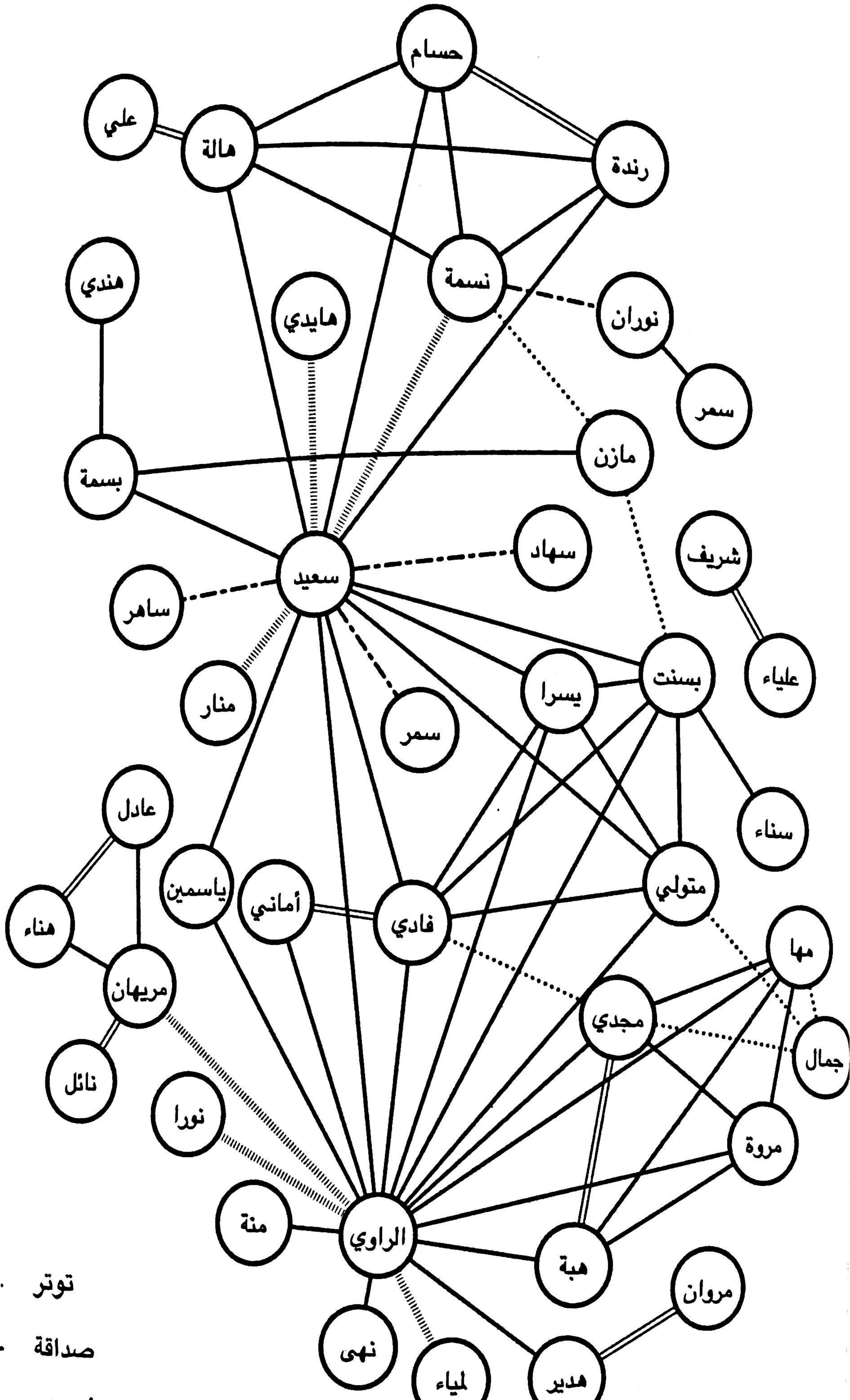

شكرا لأحمد الشربيني على إعداد الدليل

إهداء

لم يكن هذا الكتاب ليكتمل لولا صبر وحماسة وملاحظات الأصدقاء عمرو عنرت، ولبنى علاء، وأحمد ندا، وأحمد الشربيني ومها فؤاد.

وَزِين؟

اسم قناة توزيع المياه من تفريعة للنيل إلى القرى الصغيرة في الدلتا.
أصل الكلمة يُحتمل أن يعود إلى اللغة المصرية القديمة.

صيغة مبالغة من «الوزّ» في الفصحى: المشي بخفة والوثب بحماس.

ومن «الوَزّ» في العامية المصرية: الإيحاء والإلهام والتشجيع.

«الوزّ» في بعض العاميات العربية: صوت النحل، أو الزنّ: الإصرار وتكرار المحاولة.

أحيانا، ترجمة لـ wheezing: صوت التنفس رغم الصعوبات.

وزيز

مشروع نشر يمزج بين أساليب النشر
المؤسسي ومبادرات النشر التجريبي والفني

عمَّ نتحدث
حين نتحدث
عن الصداقة

الفصل الأول

"وَإِنِّي مَتَى أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ .. وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا" ٧

الفصل الثاني

"فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا .. لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا" ٢٧

الفصل الثالث

"كل الناس تتحدث عن الطقس. نحن لا نفعل" ٦٧

الفصل الرابع

"أنا يا سيدي ... هذا الأسبوع ... ابني مات" ١٠١

الفصل الخامس

"بعض الناس يعرفون كل شيء عن النباتات
بعضهم عن السمك
وأنا أعرف الفراق" ١٣٧

دليل غابة العلاقات ١٧١

تسأل بسنت كلاً منا عن أكثر صفة يحبها في الناس.
بسرعة يرد سعيد: الوفاء؛ الوفاء يتيح لك أن تسير في العالم بشعور أنك محمي، وغير قابل للانكسار. يقول فادي إنه لا يعرف الكلمة الدقيقة، لكنه يحب الأشخاص الذين يمكنك دومًا أن تعرف مزاجهم دون أن تُضطَر إلى نزع أقنعتهم واحدًا تلو الآخر، هذا الوضوح، أو الشفافية، أو القدرة على الانكشاف، هو ما يتيح لك أن تأمن لشخص ما. تقول بسنت إنها عن نفسها تحب هؤلاء المستعدين للتضحية؛ ليس لأنهم يسبغون حمايتهم علينا، ولكن لأنه لا معنى أن يختارك شخص ما ومعياره الوحيد هو المكسب، الاستعداد للخسارة، هو ما يجعل أي علاقة إنسانية أكثر من مجرد حسابات.
يقول مجدي إنه الحنان؛ لأننا جرحى نحتاج إلى الرعاية. أقول إن رهاني كله على الكرم. تقول مروة إنه الانطلاق، تحب الأشخاص المنطلقين؛ لأن من دونهم نظل سجناء مواطن أقدامنا. تقول هبة إنها المسؤولية؛ لا يمكن أبدًا مصادقة أحد لا يمكن الوثوق بإحساسه بالمسؤولية. تقول يسرا إنها تشعر أننا اخترنا كل الاختيارات بالفعل، وهي لذلك ستعود إلى البديهيات، ما تحبه في أي شخص أن يكون موجودًا. يصفق سعيد، يضحك.

يهرب راوي هذه الرواية من أزماته إلى بيوت أصدقائه وإلى ذاكرته. يتأمل بلال علاء من خلال رحلة الراوي وجود الأصدقاء وغيابهم، وكيف تشيد الصداقات وتستمر أو تنهار، ويستكشف كيف يمكننا أصلا أن نقيم علاقة مع آخر رغم متاهات الواقع واللغة والذاكرة.

بلال علاء

كاتب مصري، ولد عام ١٩٨٩. صدر له "لن نصنع الفلك" عن دار الكرمة عام ٢٠٢٠.

Publishing
ISBN:978...
...5939
9 789779...

وزيز